

حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

العقد الاجتماعي

٣

(جان جاك روسو)

حلمى مراد يقدم :
من كنوز الكتب القديمة



العقد الاجتماعى

وكتب أخرى

صفحة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

العقد الاجتماعي

(جان جاك روسو)

إنجيل الثورة الفرنسية

يسر المؤلف أن يقدم إليك فيما يلى أول خلاصة وافية تنشر بالعربية لهذا الكتاب الشامخ الذى يعد من أقوى الكتب السياسية تأثيرا على الفكر البشرى فى تاريخه الطويل ، كما يعتبر أعظم مؤلفات المفكر الخالد « جان جاك روسو » على الإطلاق ، ومصدر مجده العريض .. وقد بلغ من حجر حكام فرنسا فى ذلك العهد على الحريات العامة ــ وحرية النشر بصفة خاصة ــ أن روسو اضطر يومئذ إلى نشر كتابه هذا فى هولندا (عام ١٧٢٦) ، فرارا من الرقابة الفرنسية .. وقد كان الكتاب ، كما يدل عنوانه ، أول محاولة لتفسير وتبرير قيام الحكومات باتفاق كلمة المحكومين على إقامتها برضاهم واختيارهم كى ترعى أمورهم وتسهر على راحتهم ــ وهو عكس المبدأ الذى كان سائدا فى عصور الطغيان القديمة ــ ومن هنا كان نشر الكتاب بمثابة الوحى الأدبى الذى هيأ الأذهان لنشوب الثورة الفرنسية ، وأشعل فى النفوس شرارتها الأولى !

فسلام على روسو حيث يرقد راضيا مرضيا ــ بجوار نبى الثورة الآخر « فولتير » ــ فى مقبرة « البانثيون » بباريس .. وحيث حججت إليه منذ أعوام ــ مع مئات الزائرين من كافة أركان الدنيا ــ فخيل إلى أن روحه ترفرف من عليائها قريرة بالحرية الخالدة التى منحتها الثورة لفرنسا .. وللعالم بأسره !

السياج المشئوم

يرجع إنشاء المجتمع المدنى إلى أول رجل ضرب سياجا حول قطعة من الأرض ، وجرؤ على أن يقول : « هذه ملكى » ووجد أناسا من السذاجة بحيث أقروه .. **ترى كم من جرائم واغتيالات ، وكم من فظائع وتعاسات كان يقدر للجنس البشرى أن يتفاداها ، لو أن رجلا قام لحظتئذ فانتزع السياج وصاح فى رفاقه : « حذار أن تنصتوا لهذا المدعى ، فلسوف تقضون على أنفسكم بالضياع إن أنتم نسيتم يوما أن ثمار الأرض ملك لنا جميعا ، وأن الأرض ذاتها ليست لأحد ! »** .

بيد أن المرجح أن الظروف كانت قد بلغت وقتئذ حدا لا سبيل إلى استمرارها بعده ، لأن فكرة الملكية إنما قامت على كثير من الأفكار التى سبقتها ، والتى ما كانت لتتكون جميعا فى الذهن البشرى دفعة واحدة ، وإنما تواردت متعاقبة ، تنسخ كل منها ما سبقها على مر الأجيال ، حتى انتهت إلى هذا الوضع الأخير ..

ذلك أن أول مشاعر الإنسان كانت تنصب على حفظ كيانه ، وكان نتاج الأرض يمده بكل ما كان يعوزه ، وقد أرشدته الغريزة إلى وسائل استخدامه الأرض ونتاجها، كما هدته رغبة عمياء إلى العلاقات الجنسية لحفظ النوع .. وكانت حياة الإنسان الأول كحياة الحيوان ، مقيدة بالنزوات والأهواء ، فكان لا يكاد يفيد من هبات الطبيعة فائدة تامة ،

وبالاحرى ، كان أعجز من أن ينتزع من الطبيعة شيئا .. على أن الصعاب لم تلبث أن علمته كيف يتغلب عليها . كيف يتسلق الأشجار ليجنى ثمارها ، وكيف يصمد لمنافسة الحيوانات الأخرى الراغبة فى اقتناص هذه الثمار ذاتها من أجل بقائها .. ومن هنا كان عليه أن يتعلم كيف يحارب ، وكان من السهل أن يجد الأسلحة الطبيعية فى الأحجار والعصى .. كما كان عليه أن يتعلم كيف يعوض نفسه عما يغتصبه منه من هو أكثر منه قوة ..

وازدادت شواغل الناس بازدياد عدد أفراد الجنس البشرى .. وأدخل اختلاف أنواع التربة ، والمناخ ، والفصول ، اختلافات على طرق معيشتهم .. وأدت سنوات الجدب ، وفصول الشتاء القارسة ، وفصول الصيف القائظة ، إلى وجوب البحث عن حرفة جديدة غير الزراعة .. فاخترع سكان الشواطئ الخيط والشص ، وصادوا الأسماك وأكلوها .. وصنع سكان الغابات الأقواس والنشاب فصادوا الحيوان ، وأخذوا من جلوده كساء يقيهم غائلة الشتاء .. وهداهم البرق أو البراكين إلى النار ، فكانت مصدرا جديدا لمكافحة البرد .. ثم تعلموا كيف يشعلونها ، ومن ثم كيف ينضجون عليها اللحوم التى كانوا من قبل يأكلونها نيئة ..

ابتكار اللغات .. واختراع الآلات

وكان خليقا بالاتصالات المتكررة بين الإنسان والكائنات العديدة ، وبين هذه بعضها وبعض ، أن تنتهى به إلى نوع من التفكير ، أو الحكمة الآلية التى توحى له بالاحتياطات الضرورية من أجل سلامته . وترتب

على الذكاء الجديد الذى تأتى عن تطور الإنسان أن ازداد سموه على الحيوانات الأخرى ، إذ أوحى إليه الذكاء بكثير من الحيل التى مكنته من الغلبة عليها ، ومن أن يفرض سيادته على البعض ، وأن ينكل بالبعض الآخر .. ثم إن اتصالاته بالآدميين الآخرين جعلته يقابل بينه وبينهم ، فيخلص من ذلك إلى تبين أنهم يتصرفون مثله ، ويفكرون كما يفكر ، فأغراه ذلك على أن يسلك من قواعد السلوك نحوهم ما يكفل له السلامة والمصلحة والخير .. **وعلمته التجارب أن حب الخير هو الحافز الأوحد لتصرفات الناس ، وأن ثمة حالات يخول له اشتراك الصالح فيها بينه وبين الناس أن يعول على مساعدتهم ، كما أن ثمة حالات يجد من تضارب المصالح فيها ما يخول له أن يركن إلى الريبة والحذر .. ففى الحالات الأولى كان يسير مع من يشاطرونه المصلحة ، وفى الحالات الثانية كان كل فرد ينصرف إلى ما فيه صالحه ، ويسعى إلى تحقيق هذا الصالح إما بالقوة السافرة ، أو بالحيلة** .. وبهذه الطريقة أصاب الناس شيئا من الإدراك لقيمة الأعمال المشتركة والفوائد التى تتأتى عن تنفيذها .. ودعاهم هذا إلى ابتكار اللغات ، فى صورها الأولية الفجة الخشنة ..

وأدت خطوات التقدم الأولى إلى خطوات أعظم وأسرع .. فإن بنى آدم ازدادوا نشاطا بازدياد تنور عقولهم ، فاخترعوا العديد من الآلات التى صاغوها من الصخر الصلد ليحفروا بها الأرض ويقطعوا الأشجار ، ثم أقاموا من الأشجار أكواخا ما لبثوا أن تعلموا كيف يكسونها بطبقة من الطمى والطين .. وكان هذا عهد انقلاب أدى إلى إنشاء الأسرات وإلى نوع من الملكية أثار آلافا من المنازعات والمشاجرات .. وإذ كان من

المحتمل أن الأقوياء هم أول من أقاموا لأنفسهم أكواخا شعروا بالقدرة على حمايتها والذود عنها ، فإن الضعفاء لم يلبثوا أن انتهوا إلى أن الحذو حذوهم أسهل وأسلم من محاولة اغتصاب أكواخهم منهم .. وشيئا فشيئا تعود الإنسان أن يحترم حرمة مساكن جيرانه وملكيتهم لها ..

نشأة الحب والغيرة !

وأصبحت إقامة الزوج والزوجة وأبنائهما تحت سقف واحد عادة ، تفتقت عن أنبل وأسمى العواطف الإنسانية .. وغدت كل أسرة مجتمعا صغيرا ، قوى الترابط ، لأن الحرية والصلات المشتركة المتبادلة كانت دعائم وحدته .. وبدأ الجنسان ينفصلان فى العمل ، فأخذت المرأة تجنح إلى الاستقرار والعناية بالكوخ والأولاد ، بينما كان الرجل ينطلق سعيا وراء الحاجات المشتركة للأسرة .. وأدت أسباب الراحة والدعة والأمن إلى أن ينزل كل من الجنسين عن شىء من قوته وبطشه .. ولعل هذا أدى إلى أن يعجز الفرد عن منازلة الوحوش وحده ، ولكنه — من ناحية أخرى — تبين أن اجتماعه مع أبناء جنسه لمقاومة الوحوش عصبة ، أجدى وأسهل ..

وأتاحت بساطة الحياة ، وقلة الحاجات ، وكثرة الأدوات التى اخترعها الإنسان ، مجالا للفراغ أخذ يملؤه بملاه ومسرات لم يكن لآبائه بها عهد ، ومن ثم نبعت أولى المساوىء والشرور .. إذ لم تلبث هذه المتع أن فقدت بهجتها ، بل إنها استحالت إلى حاجات حقيقية أخذ الإنسان

يشقى بها .. يشقى بفقدانها كما يشقى بوجودها !

وهكذا اعترى التغير كل شيء .. فبعد أن كان الناس يهيمون فى الغابات ، استقروا وأخذوا يكونون جماعات منفصلة .. وعلى مر الأيام قامت فى كل بلد أمة معينة ، موحدة فى الصفات والأخلاق ، لا بحكم قوانين أو لوائح ، وإنما بحكم ممارستها لونا واحدا من الحياة ، وبحكم تناولها أنواعا معينة من الغذاء ، وبحكم تأثير الجو على أفرادها .. وأدى الجوار إلى ترابط العائلات ، وإلى اتصال أبناء الجنسين فى هذه العائلات ، فنما فى نفوسهم تقدير الجمال والخلال ، وتسربت إلى قلوبهم عواطف عذبة جميلة تربط ما بينهم .. ومع الحب انبعثت الغيرة ، وأريق الدم فى سبيل أرق العواطف !

وازدادت الألفة بين الناس ، وأخذ أبناء الجيرة يجتمعون فى أوقات الفراغ أمام أكواخهم ، فبدأ كل يولى الآخرين اعتبارات ويطمع فى أن يولوه مثلها ، وصار أعذبهم غناء ، أو أجملهم رقصا ، أو أبهاهم شكلا ، أو أقواهم عضلا ، أحظاهم بالاعتبار .. ومع الحظوة والاعتبار ، ولدت أولى أشكال عدم المساواة ، واتخذت أولى الخطوات نحو الرذيلة .. إذ بدأ كل إنسان يعتز بما ينال من اعتبار ، ويطالب الجماعة بمراعاته ، فإذا مسه أحد ، أحس فى ذلك بإهانة تستوجب الانتقام .. وأوغل الناس فى القسوة والعنف فى انتقامهم .. وهذا ما كان يلاحظ فى كثير من الأمم الهمجية التى عرفها العالم المتحضر ، فأساء كثير من الكتاب الفهم وتسرعوا فى الحكم على الإنسان بأنه فطر على القسوة .. والواقع أنه لم يك ثمة أرق وألطف من الإنسان فى بداوته الأولى !

الطمع والأثرة أفسدا سعادة الإنسان

أما وقد تكون المجتمع وتوطدت العلاقات بين الناس ، فقد أصبح الموقف يتطلب منهم صفات تختلف عن تلك التى كانت لهم فى وضعهم الفطرى البدائى ، ومن ثم ظهرت بينهم قواعد الأخلاق تحكم تصرفاتهم قبل مولد القوانين .. وكانت هذه أسعد الفترات فى تاريخ الإنسان .. وكان أحرى بها أن تمتد وتبقى ، فيظل الناس يستمتعون بمسرات الحياة ويستمرئون الصلات المستقلة على أساس المنفعة المشتركة والمتبادلة .. ولكن .. منذ اللحظة التى أحس فيها إنسان بالحاجة إلى مساعدة إنسان آخر ، ومنذ اللحظة التى خيل فيها لأى امرىء أن من الخير أن يستحوذ من المؤن على ضعف حاجته ، تلاشت المساواة ، وتفشت الملكية ، وأصبح العمل أمرا لا غنى عنه ، واستحالت الغابات الشاسعة إلى حقول ناضرة يرويها الإنسان بعرق جبينه .. ومع محصولها نبتت العبودية والشقاء ..

وكانت الزراعة وصناعة المعادن هما الفنّان اللذان أحدثا هذا الانقلاب .. كان الحديد والقمح أول ما علم الناس المدنية ، وأول ما أفسد الإنسانية .. ولقد ظلت الأمم التى اقتصرت على الزراعة فى همجيتها حتى عرفت الحديدو المعادن، ولعل من أهم أسباب ارتقاء أوربا فى المدنية عن سواها أنها كانت يوما أكثر بلاد العالم نصيبا من الحديد ،

وأغناها بالقمح .. ذلك أنه لم تكد تظهر الحاجة إلى طرق الحديد لاستخدامه فى الزراعة وغيرها ، حتى صحبتها الحاجة إلى صيانة الأدوات الحديدية وإصلاحها ، وكلما ازداد عدد الأيدى العاملة التى اجتذبتها الصناعة ، قل عدد الأيدى التى تركت للزراعة وإنتاج القوت ، دون أن يقل عدد البطون التى تنشد الغذاء !.. ثم ظهر الاتجاه إلى الاستبدال .. فالزارع فى حاجة إلى أدوات ، والصانع فى حاجة إلى غذاء ، ومن ثم شرعا يتبادلان السلع .. وهكذا قامت الصناعة وصوغ المعادن وترويج استعمالها إلى جانب الزراعة وتربية الحيوان والإكثار منهما ..

وكان حريا بالزراعة أن تستتبع توزيع الأرض ، ومن ثم فإن الاعتراف بالملكية أدى إلى أولى قواعد العدالة .. سيما وقد شرع الناس يتطلعون إلى المستقبل ، وغدا كل منهم — وقد أصبحت لديه ممتلكات — يخشى أن يوقع بأحد ضررا فيفضى ذلك إلى أن يدفع الثمن من ممتلكاته .. وهذا أمر طبيعى ، مثله مثل الملكية ذاتها فى الأصل ، فهى لم تتأت إلا عن طريق العمل اليدوى .. إذ كيف للإنسان أن يتملك شيئا لم يخلقه بنفسه ، إلا عن هذه الطريق ؟ .. ففلاحة الأرض واستنباتها يتيحان له حق ملكية إنتاجها ، وملكيتها بالتالى ، إلى أن يحصد ما زرع على الأقل .. وعاما بعد عام ، توطد حقه فى الأرض ذاتها فامتلكها ..

ولم يعد من الممكن الاحتفاظ بالمساواة فى هذه الحال ، فلو أن مواهب الناس تساوت لأمكن الاحتفاظ بتوازن دقيق بين استخدام الحديد وبين استهلاك السلع .. ولكن المواهب لم تكن متساوية ، فكان القوى يعمل قسطا أكبر من سواه ، والماهر أتقن صناعة من غيره ..

وكان صاحب الذكاء الموفور يبتكر من الأسباب ما يخفف عليه الجهد .. ثم ، كان الفلاح فى حاجة إلى مزيد من الحديد ، والحداد فى حاجة إلى مزيد من القمح ، ولقد يبذل كل منهما من الجهد قدر ما يبذل الآخر فيصيب أحدهما من عمله كسبا كبيرا ، بينما لا يكاد الآخر يحصل على ما يقيم أوده .. ومن ثم بدأ عدم المساواة يظهر ويسود ، واشتدت الفوارق التى نجمت بين الناس نتيجة اختلاف ظروفهم ، وغدت أبقى أثرا ، وأظهر نفوذا ..

ولا أريد أن أطيل على القارئ ، ففى وسعه — وقد بلغت الأمور هذا المبلغ — أن يحدس ما بقى ، وأن يتصور ما ترتب على كل ما ذكرناه من تطورات ، وخاصة استغلال المواهب ، وتباين الثروات ، وفوائد ومساوئ الغنى .. والمهم أن الناس أصبحوا بعد ذلك يعنون بأن يظهروا بما يغاير ما هم عليه فى الواقع .. ومن هنا نبت الزهو الكاذب والتظاهر والغش ، بكل ما يتبعها من رذائل .. ومن ناحية أخرى ، نشأ عن تضاعف رغبات الناس وحاجاتهم ، أن نزلوا عن حريتهم واستقلالهم ، وإن ارتضوا أن يخضعوا أنفسهم لبعضهم بعضا ، فالأغنياء غدوا يحتاجون للخدمات من غيرهم ، والفقراء غدوا فى حاجة إلى معونة الأغنياء ، وحتى من كانوا وسطا بين هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا أن يستغنوا عن زملائهم من الناس .. وهنا تحتم على الإنسان أن يعمل على استدراج الناس إلى الاهتمام بمصالحه والاقتناع بأن من الخير لهم أن ينموها له ، فلجأ إلى المكر والحيلة مع بعض الناس ، وإلى القسوة مع البعض الآخر .. وأدى التعطش إلى مضاعفة الثروة — لا عن حاجة بقدر ما هو عن رغبة فى

التفوق على الغير — إلى الإيحاء إلى الناس جميعا بنزوع خبيث إلى إيذاء بعضهم بعضا ، وبغيرة كامنة عظيمة الخطر ، لأنها تتخذ من البر والتظاهر بالخير ستارا تسعى من ورائه إلى هدفها فى أمان !

ازدياد الفوارق ونشوء العدوان

وبالاختصار ، نبت التزاحم والتنافس من ناحية ، والمصالح المتضاربة من ناحية أخرى ، مع رغبة خفيفة فى الكسب على حساب الغير !.. وكانت كل هذه المساوئ هى الآثار الأولى للملكية ، والعوامل التى تلازم ازدياد الفوارق وعدم المساواة ..

ذلك أن التوسع فى الملكية لم يلبث أن وصل إلى حد لم يكن من الممكن بعده لإنسان أن يزيد من أملاكه إلا بالعدوان على أراضى وماشية سواه ! وفى الوقت ذاته كان الفقراء ، بسبب ضعفهم أو عجزهم عن التملك ، قد ازدادوا فقرا — وإن لم يخسروا شيئا ، إذ لم يكونوا يملكون ما يخسرونه ! — وقنعوا بأن يحصلوا من الأغنياء على ما يقيم أودهم ، أو يسرقوه !.. ومن ثم نشأ عن هذا الوضع أحد أمرين : إما استكانة وعبودية ، وإما عنف وعدوان .. فى حين أن الأغنياء لم يلبثوا أن استمرأوا متعة السلطان ، فاستهانوا بسواهم ، ولم يعودوا يفكرون إلا فى استذلال من حولهم أو استعبادهم ، وقد انقلبوا ذئابا ضارية ..

وهكذا صحبت انهيار المساواة فوضى فظيعة : استغلال وجشع من جانب الأغنياء ، وسطو وسرقة من جانب الفقراء ، وخنق اندفاع كل

من الجانبين فى غيه ما تبقى من أصوات العدالة الواهنة ، فإذا نفوس البشر تفعم بالجشع والبخل والطموح والشر .. ومن ثم أفضى مولد المجتمع الجديد إلى حالة رهيبة من المعارك والحروب .. ولم يعد من أحرزوا الثروات قادرين على النزول عنها ، بل اندفعوا فى غيهم باسم الشرف والكرامة والحق ، لينتهوا بأنفسهم فى الواقع إلى هاوية الدمار .. فإذا الأغنياء والفقراء يكتوون على السواء بنيران العلل والمساوئ الجديدة !

وكان من المستحيل ألا يفكر الناس فى هذا الموقف وفى النكبات التى حاقت بهم ، بل لعل الأغنياء — بوجه خاص — قد أحسوا بمدى ما عانوا بسبب الحروب المتواصلة التى كان الغرم كله فيها عليهم ، فمع أن الأغنياء والفقراء كانوا فيها يجازفون بأرواحهم على السواء ، إلا أن الأغنياء كانوا يعرضون ممتلكاتهم فى الوقت ذاته للضياع .. هذا فضلا عن أن القلة منهم التى اقتنت أموالها بجدها ، لم تكن بأقوى من سواها حجة وحقا من ادعاء الملكية .. وكان من العبث أن يقول أحد منهم : « أنا حفرت هذه البئر ، وأنا كسبت هذه البقعة بجدى » ، إذ من الذى خول له أن ينفرد بملكيتها ؟ .. وكان ثمة من يرد عليه قائلا : « بأى حق تطلب إلينا أن ندفع لك أجر ما لم نسألك أن تفعله ؟ .. ألا تعرف أن الكثيرين من إخوتك فى البشرية يتضورون جوعا لحرمانهم مما توفر لديك بأكثر من حاجتك ؟ .. إن عليك أن تحصل على إقرار وموافقة الجنس البشرى بأسره قبل أن تستحوذ من القوت المشاع على ما يزيد عما يكفى لصون كيانك » ..

نشوء فكرة الحكومات

وإذ كان الغنى مفتقرا إلى ما يعزز ملكيته ، وعاجزا عن أن يحمى نفسه ، فقد كان يستعين بعصابات مرتزقة لا تلبث أن تثقل كاهله كما كانت الغيرة المتبادلة تحول دون تعاونه مع أنداده ضد أعدائهم العديدين .. ومن ثم ، ألهمت الضرورة الأغنياء فى النهاية أعمق فكرة خطرت ببال الإنسان .. تلك هى أن يستخدم لمصلحته قوى أولئك الذين كانوا يهاجمونه ، وأن يتخذ من أعدائه حلفاء ، فيوحى إليهم بالحكم والمبادىء المختلفة التى تفيده بعد أن غدا قانون الطبيعة لا يجدى .. فعمد إلى إظهار جيرانه على فظاعة الموقف الذى يضطر فيه كل إنسان إلى حمل السلاح ضد بقية الناس ، والذى تغدو فيه الممتلكات والثورات عبئا لا يقل فى الأرهاق عن الحاجات والمطالب ، والذى تعز فيه السلامة والأمان للغنى والفقير على السواء .. وفى لباقة ، خلص من هذا إلى غايته ، فساقها فى شكل اقتراح مستخلص من المناقشات التى دارت بتوجيهه ، قائلا : « **لنتحد كى نحمى الضعيف من الجور ، وكى نكبح جماح الطامع الطموح ، ولنضمن لكل فرد ملكية ماله .. لنضع قواعد للعدل والسلام ، يقرها ويلتزم بها الجميع دون ما استثناء .. قواعد تصلح بطريقة ما بين الحظوظ من فوارق ، إذ يضطر بها القوى والضعيف — على السواء — إلى مراعاة التزامات متبادلة .. وبإيجاز ، لنجمع قوانا —**

بدلا من أن نشهرها ضد أنفسنا — ونركزها فى قوة عليا تحكمنا بموجب قوانين حكيمة ، فتحمي جميع أعضاء الجماعة وتذود عنهم ، وتكسر شوكة الأعداء المشتركين لنا ، وتقر الوئام الخالد بيننا .. » .

وخدعت الكلمات المعسولة الناس الذين كانوا فى غمرة الجهالة ، إذ لم تكن لهم الخبرة والتجربة اللتان تبصرانهم بمواطن الخطر فى هذه المبادىء السياسية .. وإنما كان أقدرهم على استبانة الخطر ، هم أولئك الذين توقعوا النفع من ورائها .. بل أن أوفر الناس حكمة ، لم يروا كثير ضير فى أن ينزل كل فرد عن قسط من حريته ليؤمن بقية الأقساط ، كما يضحى الجريح بذراع تالفة لينقذ عمره وبقية جسده ..

هكذا كانت — أو لعلها كانت — بداية المجتمع والقانون الذى أضفى على الفقير قيودا جديدة ، وأتاح للغنى سلطات جديدة .. فقضى على الحرية الطبيعية ، ووطد للأبد قانون الملكية وعدم المساواة ، وحول الاستغلال الماكر إلى حق مشروع لا مراء فيه ، وأخضع الجنس البشرى بأجمعه إلى العمل والعبودية والمسغبة الدائمة من أجل مصلحة قلة من الطموحين ذوى المطامع ! ومن السهل أن نرى بعد ذلك كيف أن قيام جماعة واحدة جعل قيام جماعات أخرى ضرورة لازمة ، فأخذ الجنس البشرى يتحد تباعا فى جماعات لم تلبث أن ازدادت وانتشرت حتى شملت وجه البسيطة ، فلم يعد فى الأرض ركن ينجو فيه الإنسان من ربقة الوضع الجديد ، الذى غدا كالسيف المصلت أبدا فوق عنقه .. وهكذا أصبح الحق المدنى هو الحكم الشائع المشترك بين أعضاء كل جماعة ، ولم يستبق القانون الطبيعى إلا بين الجماعات المختلفة ، حيث يتفق عليه ضمنيا

باسم حقوق الأمم لتيسير ممارسة التجارة ، وليعوض التعاطف الطبيعى الذى فقد عند تطبيقه على الجماعات كل ما كان له من تأثير على الأفراد ، و لم يعد له بقاء إلا فى بعض المذاهب الروحية الشاملة ، التى تحطم الفوارق والحواجز بين مختلف الناس والشعوب ، وتؤاخى بين البشر ، عملا بتعاليم الخالق ، الذى يشمل برحمته الجنس البشرى برمته ..

كيف بررت البشرية الحروب ؟

بيد أن الجماعات السياسية ظلت على الوضع الطبيعى ، تعانى ما سعى الأفراد للخلاص منه ، فقامت الحروب الأهلية ، والمعارك ، والمذابح ، مما هز الطبيعة وأذهل العقول .. فتعلم أشرف الناس أن قطع رقاب سواهم واجب !.. وكانت هذه هى أول آثار انقسام الجنس البشرى إلى جماعات ..

أعرف أن بعض الكتاب شرحوا أصل المجتمعات السياسية على صور أخرى ، منها غلبة القوى للضعيف ، أو اتحاد الضعفاء وتعاونهم .. ولكننى أرى الصورة التى قدمتها أقرب إلى الطبيعة من سواها ، وذلك للأسباب التالية :

أولا : لأن حق الغزو والغلبة ليس مبررا أو أساسا مشروعا تبنى عليه حقوق أخرى ، فإن الغالب والمغلوب يظلان على حرب .. ما لم يسترد الأخير كامل حريته ، فيختار راضيا أن ينضوى تحت لواء الأول ..

ثانيا : لأن كلمتى « قوى » و « ضعيف » ليستا دقيقتين ، إذ أن خير

ما يعبر عنهما فى الفترة بين قيام حق الملكية وقيام الحكومة السياسية هما كلمتا « غنى » و « فقير » ..

ثالثا : لم يكن الفقراء يملكون ما يعز عليهم فقده ، اللهم إلا حريتهم ، **لذلك كان من الغباء أن ينزلوا عن هذا الشيء الوحيد الذى يمتلكونه دون أن يحصلوا على شيء فى مقابله .. فى حين أن الأغنياء كانوا ينصرفون بكل عواطفهم إلى ممتلكاتهم ، فكان من السهل الإضرار بهم ، وكان من الضرورى لهم أن يتحوطوا ضد ذلك ، ومن ثم فمن المعقول أن يكونوا أول من فكر فى الدعوة لإقامة الحكومة .**

من هذا نرى أن المشكلة التى واجهت الناس فى البداية تمثلت فى : « البحث عن نوع من التجمع والاشتراك ، يحمى بكل القوى المشتركة شخص وثروة كل فرد من أعضاء الجماعة ويدافع عنهما .. ويظل فيه كل فرد — رغم اتحاده مع الباقين — حرا لا يخضع إلا لنفسه .. »

فكرة العقد الاجتماعى

وتوفر حل هذه المشكلة ، فى « العقد الاجتماعى » .. وتتمثل روح هذا العقد فى أن كل فرد ينزل نزولا كاملا ، غير مقيد أو مشروط ، عن جميع حقوقه للمجتمع ككل ، أى كوحدة .. فلا يحق لفرد أن يحتفظ بحق لا يمتلكه كافة الأفراد الآخرين — على قدم المساواة — وإلا خرق العقد ونقضه .. ثم إن الفرد حين ينزل عن حقوقه للمجتمع ، لا يحولها أو ينزل عنها لشخص معين ، ومن ثم فإنه فى علاقاته بالأفراد يظل محتفظا بكافة

الحقوق التى ضحى بها .. ويمكن إيجاز الوضع فى هذه الصيغة : « كل منا — عامة — يضع شخصه وكل ما له من قوة أو نفوذ أو مال تحت الإشراف الأعلى للإرادة العامة ، ويعتبر كل عضو جزءا لا يتجزأ من المجموع » .. وبهذا تنشأ هيئة أدبية وجماعية تتألف من كافة أعضاء المجتمع ، وتستمد من هذا الوضع وحدتها ، وحقهـا ، وسلـطتها ، وحياتها ، وإرادتها .. هذه هى الجمهورية ، أو الدولة .. وأعضاؤها هم الشعب ، وهم مواطنون وشركاء فى السيادة وفى سلطة السيادة ، كما أنهم — فى الوقت ذاته — رعايا يخضعون لقوانين الدولة ..

ولم يكن للحكومة — فى حداثة نشأتها — شكل منظم ثابت .. إذ كان نقص التجربة والفلسفة يقصر نظر الناس على عـلاج نقـائص حاضرهم ، دون أن يتجاوزوا نطاق الحاضر إلى المستقبل .. وقد ظلت الأوضاع السياسية غير مكتملة — رغم محاولات الحكماء من المشرعين — لأن هذه الأوضاع كانت فى الواقع من وحى الصدفة أكثر من أى شىء آخر ، ومع أن مرور الزمن كشف مواطن الضعف فيها وبيّن سبـل العلاج ، إلا أن الأخطاء الأصلية ظلت بدون إصلاح .. بل إنها ظلت ترقع باستمرار ، فى حين أن المهمة الأولى كانت تتطلب تنقيتها من كل الشوائب الماضية ، وإزالة أنقاض الماضى إذا أريد أن يكون الصرح ثابت الأركان .. ذلك لأن المجتمع كان يتألف فى البداية من مجرد بضعة اتفاقات عامة اصطلح عليها الأعضاء والتزموا بمراعاتها ، وضمنت الهيئة كلها السلامة لكل فرد فى سبيل تنفيذ هذه الاتفاقات .. لذلك لم يكن ثمة ما يكشف أى ضعف فى مثل هذا الوضع سوى التجربة .. فحيثما كان

الجمهور هو الشاهد والقاضى ، كان من اليسير التهرب من القوانين بعدة طرق ، ولم يكن ثمة بد من أن تتضاعف الاضطرابات والتذمرات باستمرار ، حتى تولدت الضرورة التى تدعو إلى إيكال مسئولية السلطة العامة — أو سلطان الشعب — على خطورتها ، إلى بعض الأشخاص المعينين ، ومسئولية فرض الطاعة إلى مأمورين منفذين للقوانين والأحكام .. فالواقع أن الحكام ومنفذى القوانين لم يكن لهم وجود قبل قيام القوانين ذاتها ..

الهدف من الحكومات كان الحماية لا السيطرة

وليس من المعقول أن نفترض أن الناس ألقوا بانفسهم بين ذراعى سيد مطلق فى البداية ، دون ما قيد أو تحفظ .. فهم فى الواقع لم يختاروا لأنفسهم رؤساء — أو حكاما — ألا ليقوا أنفسهم الجور ، وليحموا حياتهم وحرياتهم وممتلكاتهم .. وما كان من حسن الإدراك فى شيء أن يبدأوا بأن يخلعوا على رئيس كافة الأمور التى أرادوا أن يستعينوا به على صيانتها ورعايتها ، إذ ما الذى يستطيع أن يقدمه فى مقابل مثل هذا الحق العظيم ؟.. **ومن ثم فلا مراء إطلاقا فى أن الأساس الأصلى والأول لكل الحقوق السياسية هو أن الناس ما أقاموا الرؤساء بينهم إلا ليكونوا لهم حماة ، وليسوا سادة مسيطرين !**

إن الحصان البرى — الذى لم يهذب — يرفع رأسه ، ويثبت حوافره فى الأرض ، ويجفل لمرأى السرج واللجام ، فى حين أن الحصان الذى

درب وروض ، يتقبل فى صبر لهيب السوط ووخز المهماز .. كذلك الإنسان فى بداوته لا يرضى بأن يذل عنقه لما يفرضه عليه الإنسان المتحضر من ربقة دون ما تذمر ، فهو يؤثر الحرية مع أقصى المتاعب ، على العبودية مع الأمان والسلام !.. لذلك فإننى حين أرى الحيوانات التى ولدت حرة تضرب قضبان أقفاصها برؤوسها برما بالأسر .. وحين أرى جموع العراة من الهمجيين ينبذون المتع الأوربية ، ويتعرضون للجوع والنار والسيف والموت لصون استقلالهم ، لا يسعنى إلا أن أشعر بخطأ الساسة والفلاسفة الذين يعزون إلى الإنسان استعدادا طبيعيا لارتضاء الاستعباد !

سلطة الأب .. وسلطة الحاكم

أما ما يستند إليه الكتّاب من أن سلطة الأب على الأسرة هى الأصل الذى أخذ عنه نظام الحكم المطلق ، فليس أقرب لدحضه من أن نذكر أن ليس على الأرض ما هو أبعد عن روح الاستبداد الشرسة ، من تلك السلطة الرفيقة التى ترعى صالح من يطيعها أكثر مما ترعى صالح من يمارسها .. فإن قانون الطبيعة يقضى على الأب بأن لا يفرض على الابن سيادته إلا حيثما تستدعى ذلك مساعدته .. وأن الأب والابن إذا ما تساويا ، استقل الأخير عن الأول ، فلا يعود يدين له بغير الاحترام ، لا الخنوع . ومن ثم فبدلا من أن نقول إن المجتمع المتحضر قد اقتبس عن سلطان رب الأسرة ، يخلق بنا أن نقول إن هذا الأخير إنما أخذ قوته

الرئيسية عن الأول .. فما كان لأب أن يحظى بالأبوة ما لم يستقر ويبقى حوله أبناؤه وبناته .. والخيرات التى يمتلكها الأب هى الروابط التى تستبقى تبعية أبنائه له واعتمادهم عليه ، وفى وسعه أن لا ينعم على أحد منهم بقسط منها إلا إذا استحقه بما يبديه من احتفال بإرادته .. أما رعايا الحكم المستبد ، فإنهم وما يمتلكون ملك له — فى نظره على الأقل — ومن ثم فهم مضطرون إلى أن لا ينالوا ، إذا ما أنعم عليهم ، سوى ما يحلو له أن يهبهم من حقوقهم وممتلكاتهم ..

لذلك لا نكاد نجد أى مبرر يدعو إلى الظن بأن الناس أقاموا الظلم والطغيان طائعين .. أو أنهم أقروا عقدا فيه كل الغرم على أحد الطرفين ، دون أن يرتبط الطرف الآخر بشيء !.. ومن ثم لا ينبغى القول بأن السلطان لا يخضع لقوانين دولته ، بل العكس هو الصحيح .. وليس ثمة إنسان يبيع حريته مقابل الخضوع لسلطة مطلقة تفعل به ما يحلو لها .. إذ أن ذلك معناه أنه يبيع حياته ، وهى ليست ملكا له ، بل هى أمانة أودعه إياها الخالق .. ثم إننا حين ننزل عن حريتنا ، إنما نهبط بأنفسنا إلى درك الانحطاط ، وليس بين الخيرات الدنيوية ما يمكن أن يعوضنا عنها .. فضلا عن أن فى ارتضاء العبودية خروجا على الطبيعة وخرقا لها ، فلا بد من تغيير الطبيعة إن شئنا أن نقر مثل هذا الوضع .. والمشرعون الذين وجدوا الجرأة على الحكم بأن ابن العبد يولد عبدا ، إنما قضوا على إنسان بأن يولد فى الحياة محروما من حقوق الإنسان !

لذلك أرى من المؤكد أن الحكومة لم تبدأ كقوة ذات سلطان استبدادى ، ولا كانت نكسة ترجع بالإنسانية إلى قانون الحكم للأقوى ،

وهو ما ابتكرت الحكومة لعلاجه .. وأخلص من هذا إلى اعتبار الوضع السياسى بمثابة عقد بين الناس ورؤسائهم الذين يختارونهم .. عقد يلتزم بمقتضاه كل من الطرفين بمراعاة القوانين التى يتضمنها ، والتى تؤلف الروابط المثبتة لاتحادهم .. فيركز القوم — مراعاة لعلاقاتهم الاجتماعية — كل إراداتهم فى واحد ، وتصبح المواد التى تعبر عنها هذه الإرادة الموحدة ، قوانين أصيلة تلزم كل أبناء الدولة دون استثناء ، كما تنظم إحدى هذه المواد اختيار وسلطة الإداريين — أو الوزراء — الذين يعينون للإشراف على تنفيذ بقيتها . وتمتد هذه السلطة بحيث تشمل كل ما يصون القوانين الأساسية — أو الدستور — دون أن تمسها بأى تغيير . وهى مصحوبة بمراتب تكريمية وامتيازات تكفل للقوانين ومنفذيها الاحترام . كما يؤثر الوزراء بامتيازات تثيبهم عما تتطلبه الإدارة الصالحة من جهد وعناية . ويلتزم الإدارى من ناحيته بأن لا يستخدم السلطة الموكولة إليه إلا طبقا لما رمى إليه أولئك الذين اختاروه ، وبأن يكفل لهم الأمن والاحتفاظ بما يمتلكون ، على أن يؤثر الصالح العام على صالحه الخاص فى كل مناسبة ..

قدسية القوانين ، لا القائمين على تنفيذها !

ولا بد أن مثل هذا الوضع بدا أبهى ما يكون روعة قبل أن تكشف التجربة عن المساوئ التى لم يكن ثمة مفر منها .. إذ كان لأولئك الذين أنيط بهم رعايته مصلحة كبرى فى بقائه .. وكان الاضطلاع بالإدارة التنفيذية وما يتصل بها من حقوق لا يقوم إلا على القوانين الأصلية ذاتها ،

ومن ثم كانت شرعية مناصب القائمين بها تزول إذا ما زالت تلك القوانين ، فلا يعود الناس ملزمين بطاعتهم .. **فإن القوانين — لا القائمين على تنفيذها — هى الدعائم الأساسية للمجتمع والدولة .. وهى اللوازم الأصلية للعقد الذى نزل الأفراد بمقتضاه عن حريتهم الطبيعية ..**

ويجب أن نفرق فى النظام السياسى بين سلطتين : التشريعية — وهى الإرادة التى تقرر أى عمل أو قانون — والتنفيذية ، وهى القوة التى تتولى تنفيذه .. ذلك لأن القوة العامة — قوة الشعب — تحتاج إلى وكيل يطبقها تبعا للإرادة العامة ، وهذا هو دور الحكومة ، فهى شيء غير الحاكم أو السلطان .. هى وسيط بين الرعايا وبين السلطان فى صلاتهما المتبادلة ، تنفذ القوانين وتكفل الحرية الاجتماعية والسياسية .. وكلما قل عدد أعضائها ، زادت قوتها .. ذلك لأن لعضو الحكومة — الوزير — ثلاث إرادات : إرادة خاصة — بوصفه عضوا فى المجتمع — وإرادته كواحد من منفذى القانون ، وإرادته كعضو فى الهيئة الحاكمة صاحبة السلطان ، وهذه الإرادة الأخيرة هى أضعف الإرادات ..

وعلى هذا ، فإن الحكم إذا انحصر فى فرد واحد كان معنى ذلك أن الإرادتين القويتين — إرادته الشخصية وإرادته كمنفذ للقوانين — اجتمعتا فى إنسان واحد ، فيكون الحكم قويا .. وإذا انحصر الحكم فى أيدى أفراد قلائل ، تركزت الإرادتان العليان فى فئة قليلة .. أما إذا كان الحكم فى أيدى المواطنين جميعا . فإن الإرادة الثانية تتلاشى ، بينما تتشتت الأولى على نطاق واسع ، فيكون الحكم ضعيفا ..

ومن ناحية أخرى ، فإن الهيئة الحاكمة تكون أكثر استعدادا لأن

تتمشى مع الإرادة العامة إذا هى تألفت من عدد كبير من الحكام ..
وتكون مهمة المشرع هنا هى أن يعمل على حفظ التوازن بحيث لا تفقد الحكومة قوتها ، وهى فى الوقت ذاته تدين للسلطان بالطاعة فى حدودها الصحيحة ..

نظم الحكومات المختلفة

وتدين نظم الحكم المختلفة بقيامها إلى تباين درجات عدم المساواة بين الأفراد ، فى زمن وضع أسسها .. فعندما كان يوجد بين القوم رجل أبرز من سواه فى القوة ، والفضيلة ، والثروة ، والنفوذ الشخصى ، كان هذا الشخص ينتخب ليكون الحاكم الأوحد الذى يستمد الباقون سلطتهم منه .. وهذا هو النظام الملكى .

أما فى حالة وجود عدد من الأفراد المتساوين فى الكفاءة ، والبارزين عمن عداهم ، فكان القوم ينتخبونهم مجتمعين ، وبذلك ينحصر الحكم فى أيدى أقلية .. وهذا هو النظام الأرستقراطى ..

أما فى المجتمعات التى لم ينحرف أعضاؤها كثيرا عن الوضع الطبيعى ، فلم تقم بينها فوارق كبيرة فى الثروات أو المواهب ، فكان الحكم فى أيدى الشعب بأسره ، أو الشطر الأكبر منه .. وهذا هو النظام الديمقراطى . وقد يقال إنه أصلح النظم جميعا ، لأن صانعى القوانين فى ظل هذا النظام هم منفذوها ، فهم أقدر الناس على تأويلها وتطبيقها ، بيد أنه ليس من الصواب فى شىء أن يتولى صانعو القوانين تنفيذها ،

ولا أن ينصرف الشعب باهتمامه عن المسائل العامة إلى أمور معينة ، إذ ليس هناك ما هو أخطر من تأثير المصالح الخاصة على الشئون العامة ، ومن المناقض للطبيعة أن يكون الحاكمون أكثر عددا من المحكومين .. ولن يقوى شعب على حكم نفسه حكما ديموقراطيا صحيحا إلا إذا كان مؤلفا من آلهة .

وللحكم الارستقراطى ثلاثة أشكال : فهو إما طبيعى ، أو انتخابى ، أو وراثى ، والأول لا يمارس إلا فى المجتمعات البدائية الساذجة .. أما الثالث فهو أسوأ نظم الحكم جميعا . فى حين أن الثانى هو أفضل الثلاثة ، إذ أن الانتخاب يمكن من اختيار الحكيم ، النزيه ، مما يضمن سلامة الحكم .

وأول نقائص الحكم الملكى ، هو أن مصلحة العاهل تقتضى أن يبقى الشعب فى حالة ضعف وفقر ، حتى يظل أفراده عاجزين عن مقاومة سلطانه . كما أن الملكية تمكن الأفاقين والانتهازيين من أن يلوا مناصب الشرف ، عن طريق دسائس البلاط ومكائد الحاشية .

أما الملكية الانتخابية ، فيعيبها أن موت الملك يصحبه اضطراب وفوضى .. فى حين أن الملكية الوراثية تترك شخصية الملك وأخلاقه فى يد الصدف والحظ ..

تطور الظلم السياسى

وكان جميع رجال الحكم يختارون فى البداية بالانتخاب ، فإذا طرح الثراء جانبا ، فإن الانتخاب كان يستند إلى الجدارة والسن .. بيد أن الإقبال على اختيار الكهول كان يستتبع تكرر عمليات الانتخاب بسرعة — إذ لا يلبث الكهل أن يموت ، فتتجدد الحاجة إلى اختيار حاكم — حتى غدت هذه الانتخابات مصدر قلاقل واضطرابات ودسائس ومؤامرات وانقلابات ، مما أفضى إلى حروب أهلية كاد الناس يعودون بفضلها إلى همجيتهم الأولى ..

وانتهز بعض الحكام هذه الظروف ليثبتوا الولاية والحكم فى أسراتهم . وفى الوقت ذاته كان الناس قد ألفوا أن يكلوا حقوقهم إلى الدولة واستمرأوا الراحة ، فارتضوا ازدياد ربقة الحكام فى سبيل استمرار الطمأنينة .. وهكذا أصبحت ولاية الحكم وراثية ، يعتبرها الحكام من ممتلكات الأسرة ، ويعتبرون المجتمع ضيعة لهم ، وأفراد المجتمع عبيدا أو ماشية .. وأخذوا يشبهون أنفسهم بالآلهة ، وينتحلون ألقاب الأباطرة !

هكذا كان تطور عدم المساواة .. بدأ باقرار القوانين وحق التملك ، ثم تبعه إنشاء الولاية والحكم ، وتلاه تحويل السلطة المشروعة إلى سلطة فردية استبدادية .. وفى المرحلة الأولى تم إقرار الفوارق بين الناس ،

فكانت للغنى الغلبة على الفقراء .. وفى الثانية أصبح التفريق يتمثل فى الاعتراف بتحكم القوى فى الضعفاء .. أما فى الثالثة فانتهى التفريق إلى وجود سيد وعبيد !.. وكانت هذه أقصى درجات عدم المساواة ، ما لم يقض على نظام الحكم بثورات جديدة ، أو يرد إلى الطريق المشروع ..

ولو أنعمنا النظر فى الموضوع ، لوجدنا أنه ما لم تكن ثمة سلطة عليا قادرة على ضمان وفاء الطرفين المتعاقدين بالتزاماتهما — فى العقد الاجتماعى — وحملهما على أداء تعهداتهما المتبادلة ، فلا بد أن يصبح كل من الطرفين حكما يقضى فى الأمر من وجهة نظره ، ويستبيح دائما حق فسخ العقد بمجرد أن يتبين أن الآخر قد أخل بنصوصه ، أو أن النصوص لم تعد تلائمه .. وهنا يجدر قيام حق الاعتزال والنزول عن السلطان ، ذلك لأنه إذا لم يكن للحاكم القابض على السلطان كله ، والمستبيح لنفسه خير ما فى العقد من ميزات ، حق النزول عن سلطانه ، فإن للناس — الذين يعانون نتائج أخطائه — كل الحق فى أن ينتقضوا على تبعيتهم له .. وتؤكد المنازعات والاضطرابات التى نشبت نتيجة لذلك مدى ما يعوز الحكومات البشرية من قواعد أكثر صلابة وتوطدا ..

ومن شأن الفوارق السياسية أن تستتبع فوارق مدنية اجتماعية ، فإذا إزدادت المساواة بين الحكام والشعب نموا ، انعكست على علاقات الأفراد بعضهم ببعض .. والحاكم لا يملك أن يستغل أية سلطة غير مشروعة ما لم يؤثر على الأشخاص الذين سيشاطرونه هذه السلطة بامتيازات تفرق بينهم وبين بقية الناس .. كما أن الأفراد لا يتقبلون الظلم

إلا بقدر ما يدفعهم فى الحياة الطموح الأعمى ، إذ ليس من السهولة فى شيء أن تحاول إخضاع رجل لم يبتل بطمع يتملكه ويسيطر عليه ، وعلى هذا فإن عدم المساواة يتفشى بين ذوى العقول التى تدفعها المطامع الهوجاء إلى المجازفة ، وإلى الاستهانة بما قد تتعرض له فى سبيل مطامعها من تقبل للربقة ورضى بالخنوع .. وكان من جراء ذلك أن مر بالناس عهد كان مجرد إنعام الحاكم فيه على الفرد بلقب كافيا لأن يرفعه فى عينى نفسه وعيون الناس ، فتعميه المظاهر عن حقيقة ما تردى فيه !

الثراء هو منبع الانحراف والفساد

والخلاصة أن عدم المساواة أصبح أمرا لا محيص عنه بين الأشخاص ، حتى بدون تدخل الهيئة الحاكمة،فإن مجرد اتحادهم فى مجتمع واحد أو حتى إليهم بالمقارنة بين كل منهم وسواه .. والفوارق على أنواع : أبرزها الثراء ، والمرتبة والمكانة ، والنفوذ ، والمواهب الشخصية .. ولقد بدأت الفوارق بهذه الأخيرة ، ثم انحطت حتى بلغت الأولى .. **إذ بالثراء يستطيع الفرد أن يبتاع أية امتيازات أو فوارق أخرى . ومن هنا نرى كيف انحرف الناس عن قوانينهم الأصلية،أو دستورهم الأول، وانحدروا إلى أقصى درجات الفساد .. وفى وسعى أن أبين بإسهاب ، كيف أن حب الشهرة والظهور ، هو مبعث المنافسة ، والنجاح ، والفشل ، بل هو مبعث كل ما نمتلك من فضائل ورذائل ، ومن معرفة وخطأ ..**

ولو مضينا قدما فى الحديث عن عدم المساواة ، لوجدناه يسوقنا إلى

بحث فوائد ومساوئ نوع من الحكومات ، لما لها من علاقة بالإنسان فى الوضع الطبيعى .. وإلى بحث جميع النواحى المختلفة التى ظهر فيها عدم المساواة ، أو التى قد يظهر فيها فى المستقبل ، تبعا لطبيعة الحكومات العديدة المتباينة وما قد يدخله عليها الزمن من تحويرات وتغييرات .. وإذ ذاك نرى أن الجموع إنما تتلقى الظلم من بين صفوفها ، نتيجة للاحتياطات التى تتخذها لتحمى نفسها من الطغيان الأجنبى .. ونرى أن الظلم يشتد باستمرار ، دون أن يتهيأ للمظلوم أن يدرك الحد الذى ينبغى أن يقف عنده ، أو الوسائل المشروعة التى تبقت له كى يوقفه ويكبح جماحه ! .. ونرى كيف أن الأساليب التى يلجأ إليها الحاكم الظالم لا تلبث أن تصرف الناس عن أعمالهم ، وأن تحول الأبطال المدافعين عن البلاد إلى أعداء لها ، وأن تضطرهم إلى أن يشهروا سلاحهم فى وجوه إخوتهم فى الوطن .. وفى غمرة هذه الفوضى ، يبتلع الاستبداد كل ما تبقى سليما ، ويوطد دعائم صرحه على أنقاض الأمة .. وينقلب الحاكم طاغية !

.. وهذه آخر درجات عدم المساواة .. بل هى النقطة التى تكمل الدائرة ، وتردنا إلى حيث بدأنا ، إذ يرجع بمقتضاها الأشخاص — كأفراد — إلى المساواة الأولى ، لأنهم غدوا سواسية فى العبودية ، وأصبحوا ولا قانون لهم سوى إرادة حاكمهم ، ولا سلطان على هذا الحاكم سوى نزواته ، وقد تلاشت كل بواعث الخير وحوافزه .. وهنا تكون العودة من جديد إلى قانون الغلبة للأقوى ، وإلى الوضع الطبيعى وقد تجرد من نقائه وشاعت فى أرجائه عوامل الفساد !

وبهذا يصبح العقد الاجتماعى — الذى قامت بمقتضاه الهيئة الحاكمة

ـــ مفسوخا ، إذ أن المستبد لا يستمد بقاء سلطانه إلا من بقائه أقوى من سواه .. ومن ثم فإن إقصاءه أو القضاء عليه يكون عملا مشروعا .. فإن الغلبة للأقوى !

وأهم ما أنتهى إليه بعد هذا الإسهاب فى الحديث عن عدم المساواة وبيان ما تؤدى إليه من عواقب ، هو أن الإرادة العامة وحدها هى القادرة على توجيه قوى الدولة نحو الهدف الذى قام عليه وضعها ، ألا وهو الصالح العام . ومن ثم فإن السيادة أو السلطان ، معناه ممارسة الإرادة العامة ، وبالتالى فهو لا يعمل بوحى من إرادته .. ولهذا السبب فإن السيادة ـــ أو السلطان ـــ لا يقبل التحويل ، ولا يقبل التجزئة ! .. لأن الإرادة إما أن تكون عامة شاملة ـــ ومن ثم تكون رغبة من الشعب وتصبح قانونا ـــ وإما أن لا تكون عامة ، بل مجرد رغبة من شخص أو أشخاص معينين فيخرج تفردهم بها عن نطاق السيادة وحدود الحكم .. إذ أن القانون إنما هو تعبير عن إرادة عامة ، وليس للهيئة الحاكمة ـــ أو السلطان ـــ أن تسن تشريعا يقتصر على جزء ممن يؤلفون الدولة ، لأن هذا معناه أن الإرادة العامة تدخل فى علاقة خاصة مع قوم معينين ، وهذا ما يناقض طبيعتها ..

الحرية والمساواة هما أهم الإهداف

ومن ناحية أخرى فإن المشرع الحكيم لا يبدأ بكتابة قوانين تبدو صالحة فى أسلوبها وكلماتها ، وإنما هو يتلفت حوله أولا ليستبين ما إذا كان الناس قادرين على تقبلها والتزامها .. ويجب أن يضع نصب عينيه

اعتبارات كثيرة : منها موقع البلاد ، وطبيعة أرضها ، وكثافة سكانها ، وتاريخها القومى ، وميول أهلها وحرفهم .. إلخ .

ومن الاعتبارات الهامة ، مساحة الدولة .. فهناك حدود لكل دولة ، إذا تجاوزتها تعذر حكمها حكما صالحا ، وإذا قلت عنها كانت من الصغر بحيث يتعذر عليها أن تعول نفسها وتصون كيانها !.. ولكل هيئة سياسية حد أقصى للقوة لا ينبغى أن تتجاوزه وإلا تعثرت وسقطت .. وكلما اتسع نطاق المجتمع ، تفككت عرى الرابطة التى تربطه ..

والواقع أن القوة أو الاتساع ليسا أهم الأهداف ، بل إن أهمها جميعا هما : الحرية والمساواة ، وهما الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل نظام تشريعى ..

ولما كانت الهيئة الحاكمة لا تعمل بغير القوانين ، وكانت القوانين نتاج الإرادة العامة ، فإن الهيئة الحاكمة لا تستطيع أن تعمل إلا إذا اجتمع الناس وعبروا عن إرادتهم . ومن ثم كان لزاما أن تعقد فى فترات محدودة ثابتة ، اجتماعات للشعب لا سبيل إلى إلغائها أو إرجاء اجتماعها ..

الشعب الإنجليزى ليس حرا !

وقد أفضى هذا إلى ابتكار انتخاب النواب أو المندوبين الممثلين للشعب فى الجمعيات الوطنية . ولكن السيادة لا يمكن تمثيلها بمندوبين لأنها تتمثل فى الإرادة العامة ، والإرادة العامة لا يمكن أن يعبر عنها التمثيل أو المندوبون ، على أتمها. **ومن هنا نرى أن الشعب الإنجليزى مخدوع فيما**

يعتقده من أنه حر لأنه ينعم بنظام برلمانى . والواقع أنه لا ينعم بالحرية إلا فى فترة انتخاب أعضاء البرلمان فحسب ، وبمجرد أن تتم عملية الانتخاب ، يرتد إلى نوع من العبودية .

غير أن من النتائج المنطقية المترتبة على العقد الاجتماعى ، أن الغلبة للأغلبية فى جمعيات الشعب ، أى المجالس النيابية .. والقانون الوحيد الذى يتطلب إجماعا تاما من الشعب كله هو العقد الاجتماعى .. ولكن ، كيف يكون الإنسان حرا ، وهو يخضع فى الوقت ذاته لقوانين لم يوافق عليها ؟.. وأجيب على ذلك بأنه إذا ما عرض قانون على الجمعية الشعبية ، فإن المسألة لا تتمثل فيما إذا كان المواطنون يقرونه أو لا يقرونه ، وإنما تتمثل فى : هل يتفق هذا القانون مع الإرادة العامة أو لا يتفق ؟ .. فإذا أقرته الأغلبية فى الجمعية ، كان هذا برهانا للأقلية على أنها أخطأت إذ حسبت أنها تمثل الإرادة العامة للشعب ، وبصدوره يعتبر أفراد الأقلية مساهمين — كأعضاء فى المجتمع — فى وضعه ، ما دام معبرا عن الإرادة العامة ، وبالتالى يلتزمون بالخضوع له ..

أخلص من كل هذا العرض إلى أنه لا يكاد يوجد فى الوضع الطبيعى — الذى فطر عليه الإنسان — شىء من عدم المساواة ، وإنما نشأ كل ما يسود المجتمع الآن من عدم المساواة، نتيجة اشتداد ونمو مواهبنا ، ونتيجة تقدم العقل البشرى .. ثم توطد واكتسب صفة الدوام وشرعية وجوده بإقرار حق التملك ، وبإصدار القوانين ..

الكتاب الذى ينبغى أن يهضمه كل مثقف

قدمت لك فى القسم الأول آراء « روسو » فى أصل التفاوت وعدم المساواة بين البشر ، وهى الآراء التى مهد بها لنظريته الخالدة فى « العقد الاجتماعى » ، ثم عرضت لك فى إيجاز « الخطوط الرئيسية » لهذا الكتاب الذى هز الفكر العالمى فى أواخر القرن الثامن عشر وهيأ الأذهان لنشوب الثورة الفرنسية الكبرى ..

ثم أقدم لك فيما يلى بالتفصيل صلب نظرية روسو فى العقد الاجتماعى .

الكتاب الأول

هل يمكن أن يتخلى الإنسان عن حريته ؟

ولد الإنسان حرا ، ومع ذلك فإنه فى كل مكان يرسف فى الأغلال .. وإن المرء ليظن نفسه سيد الآخرين ، لكنه برغم هذا قد يكون أكثر منهم عبودية .. فكيف يتأتى ذلك ؟

إذا نحن أدركنا أن ليس لامرىء سلطان طبيعى على أخيه الإنسان ، كما أن القوة لا يمكن أن تخلق حقا ، لانتهينا إلى أن السلطة الشرعية بين الناس

إنما تقوم على « اتفاقات » عقدت بينهم .. ذلك لأن صاحب القوة العليا — أى الأقوى بين الناس — لا يمكن أن يؤتى من القوة ما يكفل له السيادة دائما ، اللهم إلا إذا حول « القوة » إلى « الحق » ، وحول « الطاعة » إلى « واجب » .. ولكن الخنوع للقوة حكم ضرورة وليس بالعمل الإرادى ، فكيف يكون واجبا ؟.. إننا إذا سلمنا بوجود هذا الحق المزعوم ، وبأن القوة تخلق الحق ، لنتج عن ذلك أن تنتقل السيطرة على هذا الحق إلى أية قوة تتفوق على القوة الأولى التى اغتصبته .. فأى « حق » هذا الذى يتلاشى بانهيار قوة مدعيه ؟.. إن مجرد القسر على الخضوع للقوة لا يحتاج إلى أن نبرر هذا الخضوع بأنه « واجب » .. وما لم نكن مجبرين على الخضوع ، فليس ثمة « التزام » يضطرنا إليه .. ومن ثم فلا معنى لكلمة « الحق » مع « القوة » ، وبالتالى ، فالقوة لا تخلق حقا ..

كذلك لا نستطيع أن نقر أى تنازل اختيارى عن الحرية .. والقول بأن من الناس من يهب نفسه للغير دون مقابل ، سخف غير معقول . وحتى لو وجد الإنسان الذى يهب نفسه للغير ، فإنه لا يملك أن يهب أبناءه ، لأنهم يولدون أحرارا ، وحريتهم ملك لهم ، فليس لأحد حق التفريط فيها .. بل إننا لو تصورنا أن الإنسان قد ينزل عن حريته لسواه فى سبيل العيش ، فلأى شىء ينزل شعب عن حريته للملك أو سلطان ؟.. إن الملك أبعد من أن يمد رعاياه بالقوت والعيش ، لأنه هو نفسه يستمد عيشه منهم !

ثم إن التخلى عن الحرية معناه تخلى الإنسان عن أن يكون إنسانا ،

وتفريطه فى حقوق الإنسانية ، بل وفى واجباتها .. إن كلمة « عبد » وكلمة « حق » متناقضتان بكل ما فى التناقض من معان ..

لا بد من تعاون البشر فى سبيل البقاء

وعلى هذا الضوء ، نرى أن الشعب قد يهب نفسه لملك (أى حاكم) ، ولكن هذا يتطلب أن يصبح « شعبا » أولا ، لأن الهبة هنا عمل مدنى ، عمل سياسى اجتماعى ، ومن ثم ينبغى علينا أن نتأمل — قبل أن نبحث فى هذا — كيف يصبح الشعب شعبا ، لأن هذه هى الخطوة التى لا بد منها قبل كل الخطوات .. إذ أنها أساس المجتمع ..

إننى أتصور أن البشر فى تطورهم وصلوا إلى نقطة كانت عندها العقبات التى تعترض طريق بقائهم أحياء آمنين ، أقوى من الموارد التى فى متناول كل فرد منهم للمحافظة على كيانه وبقائه فى هذا الوضع .. ومن ثم كان الجنس البشرى مسوقا إلى الهلاك ، ما لم يغير من طريقة وجوده .. وعلى هذا ، لم يكن أمام البشر سوى أن يوحدوا قواهم الموجودة ، حتى تقوى على مقاومة تلك العقبات .. ولكن ، إذا كانت قوة كل إنسان وحريته هما عدته الوحيدة فى صون حياته ، فكيف يقيدهما دون أن يضر بمصلحته ؟

من هنا — أى من ضرورة التعاون بين الناس لمقاومة قوى الطبيعة — انبعثت الحاجة إلى التعاهد أو التعاقد .. أو بعبارة أخرى ، الحاجة إلى « البحث عن نوع من التشارك يحمى بكل قوى المشتركين فيه — مجتمعة

ـــ شخص وثروة كل عضو فيه ، ويذود عنهما ، بحيث يستطيع كل فرد ـــ رغم اتحاده مع الجميع ـــ أن يظل فيه حـرا كما كان ، لا يطيـع إلا نفسه » .

وهذه هي المشكلة الأساسية التي يهيئ « العقد الاجتماعي » حلها ..

كيف تتألف الدولة .. والأمة

ولو أننا استبعدنا عن التعاقد الأمور التي لا تمس جوهره ، لوجدناه يتلخص في أن « يضع كل منا ـــ عامة ـــ شخصه وكل ما له من قوة ونفوذ ، تحت الإشراف الأعلى للإرادة العامة ، كما أننا في نطاق شركتنا ، نعتبر كل عضو جزءا لا يتجزأ من المجموع » .

وهذا التشارك يخلق مباشرة هيئة معنوية جماعية ـــ بدلا من الشخصية الفردية لكل عضو من المتعاقدين ـــ تتألف من أعضاء بقدر ما في الجماعة من أصوات ، وتستمد من التعاقد وحدتها وشخصيتها المشتركة وحياتها وإرادتها .. وهذه الشخصية العامة التي تتكون باتحاد كافة الأشخاص الآخرين ، هي التي كانت تعرف من قبل باسم « الوطن » CITY ، وهي الكلمة الإنجليزية التي حرفت في العصور الحديثة فأصبحت تطلق على « المدينة » ، ونسي الناس أن المدينة تتألف من بيوت ومبان ، في حين أن الوطن يؤلفه « مواطنون » .. وكان هذا الالتباس سببا في كثير من الأخطاء ..

وهكذا ، كانت الشخصية العامة تعرف باسم « الوطـن » ،

وأصبحت تتخذ اسم « الجمهورية » ، ويدعوها أعضاؤها « دولة » فى الاعتبارات السلبية ، و « أمة » صاحبة سيادة — أو بالأحرى « مصدر السلطات » — فى الاعتبارات الإيجابية .. ويسمى المشتركون فيها بـ « الشعب » ، وكثيرا ما يدعون « مواطنين » إذا ما ساهموا فى أعمال السيادة ، و « رعايا » بحكم خضوعهم لقوانين الدولة ..

مما سبق نرى أن التشارك — أو تكوين الجماعة — يتضمن تعهدا متبادلا بين الشخصية العامة والأفراد .. ولا ينطبق هنا ما هو معروف من أن الإنسان لا يلتزم بما يصدر من تعهدات لنفسه ، إذ أن هناك فارقا كبيرا بين أن تتعهد لنفسك بالتزام ، وبين أن تتعهد بالتزام إلى مجموع أنت جزء منه ..

وما أن يتم توحيد الجمع أو القوم فى هيئة واحدة ، حتى يغدو من المستحيل الاعتداء على أحد أعضائها ، دون أن يكون فى ذلك اعتداء على الهيئة كلها .. بل إن من المستحيل أن يوجه اعتداء إلى الهيئة دون أن يقاوم أعضاؤها هذا العدوان ..

ما يفقده الإنسان بالعقد الاجتماعى ، وما يربحه منه

ولكى لا يكون التعاهد أو العقد الاجتماعى مجرد صيغة جوفاء ، فإنه ينطوى ضمنا على التعهد الوحيد الذى يدعم بقية التعهدات ، ألا وهو أن كل من يرفض أن يطيع الإرادة العامة ، فإن الهيئة كلها تضطره إلى الطاعة .. ولا معنى لهذا سوى أنه يجبر قسرا على أن يكون حرا ، لأن هذه

هى الحالة التى تصون المواطن — إذا ما وهب نفسه لبلاده — من كل تواكل شخصى ، أو اعتماد على شخصه .

إن الإنسان يفقد بالعقد الاجتماعى حريته الطبيعية ، والحق المطلق غير المحدود فى أن يستولى على كل شىء يسعى للحصول عليه ويظفر به بالفعل .. لكنه يكسب فى مقابل ذلك حرية مدنية — أو بالأحرى سياسية واجتماعية — وحق ملكية كل ما يمتلك . **وخليق بنا أن نضيف إلى ما يحصل عليه الإنسان من العقد الاجتماعى : الحرية الخلقية ، فهى الوحيدة التى تجعله حقا سيد نفسه ، لأن فى مجرد تحرك النزوة عبودية ، فى حين أن إطاعة القانون الذى نضعه لأنفسنا حرية !**

وأختتم هذا الفصل بالإشارة إلى حقيقة يجب أن يقوم عليها النظام الاجتماعى بأسره .. تلك هى أنه بدلا من القضاء على عدم المساواة الطبيعى ، فإن التوافق بين الناس يوفر لهم مساواة أدبية وشرعية تعوضهم عن الفوارق المادية أو الجسدية التى قد تفرضها الطبيعة عليهم .. ومن ثم فإن أولئك الذين قد لا يكونون متساوين فى القوة أو الذكاء ، يصبحون متساوين بحق الاتفاق المتعارف عليه ، وبالحق القانونى ..

وهذه المساواة — تحت حكم الحكومات السيئة — تكون مجرد مظهر وهمى ، لا تؤدى إلا إلى بقاء المعوز فى فقره ، والغنى فى المركز الرفيع الذى ناله بالاستغلال .. والواقع أن القوانين — فى هذه الحال — تستغل عادة لصالح من أوتوا النعم ، للإضرار بالمعدمين !

الكتاب الثانى

الشعب قد يخدع .. لكنه لا يفسد !

وأول وأهم نتيجة نستخلصها من المبادئ التى عرضناها فيما تقدم ، هى أن الإرادة العامة وحدها تستطيع أن توجه الدولة إلى الهدف الذى أنشئت من أجله .. ألا وهو الصالح العام .

والواقع أنه إذا لم يكن من المستحيل أن تتفق إرادة الحاكم الخاصة مع الإرادة العامة فى بعض النواحى ــ بمحض المصادفة ــ فإن من المستحيل فعلا أن يدوم هذا الاتفاق ويستمر ، لأن الإرادة الخاصة لا تلبث بفطرتها وطبيعتها أن تنحو نحو التحيز ، فى حين أن الإرادة العامة تتجه إلى المساواة .. ومن ثم فإن الشعب إذا وعد بالطاعة ــ دون قيد ــ فإنه بهذا العمل يفقد العامل الذى يجعله شعبا .. وفى اللحظة التى يوجد فيها « سيد » تتلاشى الأمة ، صاحبة السيادة والسلطان !

وليست السيادة سوى ممارسة الإرادة العامة ، ومن ثم فهى غير قابلة للتحويل ، فصاحب السيادة ــ أى الأمة ــ لا يمكن أن يمثله أحد سوى نفسه .. وكما أن السيادة لا يمكن تحويلها ، كذلك هى ــ لنفس السبب ــ غير قابلة للتجزئة .. لأن الإرادة إما أن تكون عامة ، أو لا تكون عامة .. أى أنها إما أن تكون إرادة الشعب ، أو إرادة جزء منه .. ففى الحالة

الأولى فقط تكون الإرادة — إذا ما أعلنت — عملا من أعمال السيادة ، فتكون قانونا .. أما فى الحالة الثانية ، فلا تكون سوى إرادة خاصة ، أو عمل من أعمال الحكم .. أى لا تعدو أن تكون مرسوما ..

ويترتب على هذا أن الإرادة العامة تكون دائما صوابا ، وتتجه إلى المصلحة العامة .. ولكن لا يستتبع ذلك أن « قرارات » الشعب تكون دائما على نفس القدر من الصواب .. فإن إرادتنا تتجه دائما لصالحنا ، ولكنا قد لا نعرف أين يكمن هذا الصالح .. والشعب لا يمكن قط أن يفسد ، وإنما هو قد يخدع أحيانا ، وفى هذه الأحيان فقط يتجه بقراراته إلى ما هو سيء أو خطأ ..

واجب الفرد نحو الدولة

وكثيرا ما يكون ثمة فارق كبير بين إرادة المجموع والإرادة العامة .. فهذه لا ترعى غير الصالح العام ، فى حين أن الأولى (وهى نتاج إرادة ممثلى المجموع أو البرلمان) تدخل فى حسابها الصالح الخاص ، ولا تعدو أن تكون مجموعة من الإرادات الخاصة المعينة !

وكما أن الطبيعة تمنح الإنسان سلطة مطلقة على جميع أعضاء جسمه ، فإن العقد الاجتماعى يمنح الأمة سلطة مطلقة على أعضائها هى الأخرى ، وهذه السلطة هى التى تحمل اسم السيادة .. فكل إنسان ينزل بمقتضى العقد الاجتماعى عن الجزء الذى يهم المجتمع أن يسيطر عليه ، من قواه وممتلكاته وحريته .. غير أنه لا بد أيضا من الأقرار بأن

الأمة أو السلطان هو الحكم الأوحد الذى يعين هذا الجزء الضرورى .. ومن ثم فكل خدمة يستطيع المواطن أن يؤديها للدولة ، ينبغى أن يبادر بأدائها بمجرد أن يطلب إليه السلطان ذلك .. بيد أن الأمة (أو السلطان) لا يمكن أن تفرض على رعاياها أية قيود لا نفع منها للمجتمع ، بل وليس لها مجرد التطلع إلى ذلك ، إذ أن حكم العقل — وديدن الطبيعة — يقضى بأن الشىء لا يمكن أن يحدث دون سبب ..

من هذا نرى أن السلطان لا يستطيع أن يتخطى حدود الاتفاقات المتعارف عليها ، رغم ما له من سلطة مطلقة وقداسة ومناعة .. وأنه لا يملك قط أى حق فى أن يفرض على أحد الرعايا من الالتزامات أكثر مما يفرض على سواه ، إذ أن الوضع يصبح فى هذه الحالة خاصا ، ومن ثم لا يعود فى نطاق الاتفاقات المتعاهد عليها ..

عندما تطالب الدولة الفرد .. بالموت !

والهدف الأخير للمعاهدة الاجتماعية — أو العقد الاجتماعى — هو صيانة بقاء المتعاهدين .. والراغب فى الغاية لا بد له من أن ينتهج الوسيلة ، وقد تنطوى الوسيلة على بعض المخاطر ، بل وبعض الخسائر .. **فالراغب فى صون حياته على حساب الآخرين يجب — إذا دعت الضرورة — أن يكون مستعدا لأن يجود بها فى سبيلهم .. وفوق ذلك ، فإن المواطن لا يعود هو الحكم الذى يعين المخاطر التى يريده القانون على أن يتعرض لها ، فإذا قال الحاكم : « من الضرورى لمصلحة الدولة أن تموت » ،**

وجب أن يموت ، لأنه لم يعش فى أمان حتى هذه اللحظة إلا على هذا الشرط وحده ، ولأن حياته لم تعد مجرد نعمة من الطبيعة ، وإنما هى منحة كفلتها له الدولة على هذا الشرط !

وعلى هذا الضوء يمكن أن ننظر إلى عقوبة الإعدام التى تفرض على المجرمين ، فنحن لا نقر أن يفرض علينا الموت إذا صرنا قتلة ، إلا لكى لا نقع فرائس لأى قاتل ..

أضف إلى هذا ، أن كل شرير يغدو باعتدائه على الحقوق الاجتماعية متمردا وخائنا لبلاده ، وهو بانتهاكه قوانينها يفقد عضويته لها ، بل إنه يغدو محاربا لها ، وفى هذه الحالة لا يعود بقاء الدولة متمشيا مع بقائه ، فلا بد لأحدهما من الهلاك .. ومن ثم فنحن حين نعدم المذنب إنما نعدم « عدوا » لا « مواطنا » !

وإلى جانب هذا يحسن أن نذكر أن كثرة العقاب تكون دائما نذيرا بضعف أو تراخى الحكومة ، فليس ثمة مسىء يعز تحويله إلى محسن . ومن ثم فليس من حق الدولة أن تعدم أى شخص — ولو على سبيل العبرة — إذا كان فى وسعها أن تبقى على حياته دون ماخطر ..

وحق العفو عن المذنب وإعفائه من عقوبة فرضها القانون وطبقها عليه القاضى ، فى يد السلطة التى تعلو القاضى والقانون — أى السلطان — فهو وحده الذى يملك ذلك .. بل إن حقه فى هذا لا يزال غير واضح ، فالعقوبات تقل فى الدولة التى تحكم حكما صالحا ، لا نتيجة لكثرة العفو ، وإنما نتيجة لندرة المجرمين !

القانون ينظر إلى المبدأ .. لا الأفراد !

ولقد وهبنا الدولة ــ بالعقد الاجتماعى ــ وجودها وحياتها ، وآن لنا الآن أن نتيح لها بالتشريع الحركة والإرادة .. إذ أن العمل الأصلى الذى نشأت بمقتضاه وتوحدت ، لا يزال أبعد من أن يعين ما ينبغى عليها أن تفعله فى سبيل بقائها ..

إن كل خير ، وكل طيب يتمشى مع النظام ، إنما يكتسب صفته هذه من طبيعة الأمور لا من الاتفاقات البشرية .. فكل عدل يستمد من الله ، فهو المورد الأوحد .. **ولكنا لو عرفنا كيف نتلقى مثل هذا الوحى أو الإلهام السامى لما كانت بنا حاجة إلى حكومة أو قوانين .. ولا مراء فى أن ثمة عدالة شاملة ، تنبعث من العقل وحده ، ولكن لا بد للاعتراف بها من أن تكون متبادلة .. والواقع أن غياب الضمانات الطبيعية يجعل قوانين العدالة غير مجدية بين البشر ، لأنها تستغل لصالح الخبيث ولإيقاع الظلم إذا ما التزمها المرء نحو الناس ولم يلتزمها أحد نحوه !..**
وإذن فالاتفاقات والعرف والقانون لازمة لربط الحقوق بالواجبات ولرد العدالة إلى غرضها وهدفها .. ففى حالة الفطرة الطبيعية ، وحيث يكون كل شىء مشاعا للجميع ، لا ألتزم بشىء إزاء من لم أعده بشىء .. ولا أعترف بحق الآخرين فى تملك شىء إلا إذ كنت لا أرى فيه نفعا لى .. أما فى المجتمع ، فكل الحقوق يحددها القانون ، وبهذا يختلف الوضع ..

ولكن ما هو القانون ..

عندما يقرر جميع الشعب أمرا للشعب كله ، فإنه فى هذه الحال لا يراعى إلا نفسه ، أى أن العلاقة هنا تكون بين طرفى شيء واحد .. فإن الشعب فى هذه الحالة يقرر لنفسه حقا ويلزم نفسه بواجب ، دون ما تفرقة .. وهنا يكون ما قرره : قانونا !

فهدف القانون وموضوعه عام ، أى أن القانون ينظر إلى المجموع كتلة واحدة فلا ينصب على شخص معين أو تصرف معين بالذات .. وبالتالى ، القانون قد يقرر امتيازات ، ولكنه لا يقصرها على أى فرد معين . وهو قد يقيم عدة طبقات بين المواطنين ، بل إنه قد يعين المؤهلات اللازمة لعضوية هذه الطبقات ، ولكنه لا يستطيع أن يحدد أو أن يعين فلانا وعلانا لكل طبقة .. وهو قد يقيم حكما ملكيا ونظاما للوراثة ، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر بالاختيار ملكا معينا أو أسرة ملكية معينة ..

وبالإيجاز ليس من السلطة التشريعية فى شيء أى عمل يهدف إلى غاية معينة بالذات ..

ومن هذا كله أخلص إلى إطلاق اسم « جمهورية » على كل دولة تحكم بالقوانين .. لأن الحكم هنا ـــ فقط ـــ يكون للرأى العام وللصالح العام ..

والقوانين الجيدة فى شعب ما ليست هى الطيبة فى حد ذاتها ، وإنما هى التى أحسن وضعها بحيث تلائم هذا الشعب بالذات .. وكم من أمة عظيمة عجزت عن احتمال القوانين الجيدة ، لإنها لا تلائمها .. وحتى تلك التى احتملتها لم تستطع أن تمضى فى احتمالها إلا لفترات قصيرة جدا من تاريخها

الطويل .. ومعظم الشعوب — كمعظم الناس — لا تكون لينة لطيفة إلا فى شبابها ، فهى إذا كبرت عز إصلاحها وتقويمها ، و لم تعد تحتمل أن يرشدها أحد إلى أخطائها لتعالجها .. وهنا قد لا يبقى مفر من أن تتعرض الدولة لأحد خطرين : الثورة ، من الداخل .. أو الحرب ، من الخارج ! والثورات النافعة نادرة ، فى حكم الاستثناء ، وسببها دائما ما يوجد من عيوب فى الدستور الخاص بالدولة التى تقع فيها .. بل إنها لا تحدث مرتين لشعب واحد ، لأن الحافز المدنى حين يفقد قوته ، تعجز الثورات عن إصلاحه ، وفى هذه الحالة لا بد للشعب من سيد ، لا محرر .. ومن ثم فخليق بالشعوب الحرة أن تضع نصب عينيها دائما أن « الحرية قد يمكن كسبها ، ولكنها إذا فقدت عز استردادها ! » .

كلما اتسعت الدولة .. ضعفت !

وكما أن الطبيعة فرضت حدودا متعارفا عليها لكيان وبنيان الإنسان الحسن التكوين ، فإذا تجاوزها لم يعد سوى عملاق أو قزم ، **فكذلك تركيب الدولة وتكوينها يكون خير ما ينبغى أن يكون ، إذا تيسر أن لا تكون حدودها أكبر من أن يتسنى حكمها حكما طيبا ، أو أصغر من أن تكفى لشعبها أو تصون نفسها بنفسها . فلكل دولة قوة قصوى لا تستطيع أن تتجاوزها ، بل إنها تفقدها إذا اتسعت رقعتها ، إذ أن كل امتداد للرابطة الاجتماعية يؤدى إلى ارتخائها .. ومن ثم يمكن القول — على وجه العموم — إن الدولة الصغيرة أقوى نسبيا من الكبيرة !**

ولو بحثنا أعظم الخير كله ـــ وهو ما يجب أن يكون هدف كل نظام تشريعي ـــ لوجدناه يتلخص فى غايتين رئيسيتن : الحرية والمساواة .. وخليق بنا أن نفهم من المساواة أنها لا تعنى التعادل المطلق فى درجات النفوذ والقوة والثراء بين كافة الناس ، ولكنها تعنى أن القوة لن تبلغ الدرجة التى تمكنها من أن تستحيل إلى عنف ، وأنها ستمارس فى حدود المكانة الاجتماعية والقانون .. وأن أى إنسان لن يؤتى من الثروة ما يمكنه من أن يشترى سواه ، ولن يبلغ من الفقر إلى الدرجة التى تضطره إلى أن يبيع نفسه !

ذلك لأنه إذا كان استقرار الدولة ودوامها هما الهدف ، فلا بد من التقريب بين الطرفين ، فلا يكون هناك غنى ولا يكون هناك معوز .. لأن التطرف فى أى الجانبين يعرض الصالح العام للخطر المهلك .. فالإفراط فى الثراء يخلق أنصار الطغيان والجور ، والإفراط فى الفقر يولد طغاة باطشين .. وطالما وجد الطرفان فإن الحرية العامة تغدو سلعة تدور حولها المساومة : أحدهما يملك أن يشتريها ، والآخر مستعد لأن يبيعها !

الكتاب الثالث

أشكال الحكومات

تحتاج القوة العامة ــ أو قوة الشعب ــ إلى وسيط من الشعب ذاته ، يؤلف بينها ويحركها تحت توجيه الإرادة العامة لتكون وسيلة اتصال بين الدولة والسلطان أو الحاكم .. ومن هنا نشأت الحكومة ، لتكون مساعدة للسلطان ، ومستشارة ، أو وزيرة !.. فالحكومة هي الهيئة الوسيط بين الرعايا والسلطان ، تضمن تبادل الاتصال بينهما ، وتنفذ القانون ، وتصون الحرية المدنية والحرية السياسية ..

والشعب حين يضع نفسه تحت إمرة الحاكم ، لا يكون ذلك منه بمثابة تعاقد . وإنما يكون انتدابا ، أو استخداما ، يمارس الحكام بمقتضاه السلطة التي يعهد بها الشعب إليهم ، كموظفين لديه وعاملين باسمه .. ويبقى فى استطاعته أن يحد من هذه السلطة أو يعدلها ، أو يستردها ، وفق هواه ..

وأنواع الحكم ثلاثة :

فقد يعهد به الشعب إلى هيئة كبيرة متشعبة ، ومن ثم يزداد عدد المواطنين الذين يصبحون موظفين أكثر منهم مجرد أفراد يعملون لمصلحتهم الخاصة .. وهذا النوع من الحكم يسمى : الديمقراطية ..

أو قد يقصر الحكم على صغير ، فيكون ثمة مواطنون أكثر من الموظفين المتولين الحكم ، وهذا ما يسمى « الأرستقراطية » .

وأخيرا ، قد تركز الحكومة كلها بين يدى موظف واحد ، يستمد الباقون منه السلطة .وهذا النوع الثالث هو الأكثر شيوعا ، ويسمى « الملكية » أو « الحكم الملكى » .

ولو التزمنا حرفية هذا التقسيم ، لوجدنا أنه لم تقم يوما ـــ ولن تقوم ـــ ديموقراطية حقيقية .. فمما يناقض طبيعة الأمور أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة ، إذ ليس من المعقول أن يظل الناس مجتمعين باستمرار ، مخصصين أوقاتهم للشئون العامة .. ومن الجلى أنهم لا يمكن أن ينيبوا عنهم مندوبين دون أن يتغير شكل الحكم !

ثم ، كم من شروط تتطلبها حكومة كهذه ، ويعز جمعها معا !.. إنها أولا تتطلب دولة صغيرة جدا ، يمكن جمع أهلها بسهولة وسرعة ، ويتسنى لكل مواطن فيها أن يعرف الآخرين جميعا . وهى ثانيا تتطلب تسهيلا عظيماً فى طرق الحكم ، لمنع تراكم الأعمال وتضاعفها ونشوء المشكلات الشائكة .. كما تتطلب قدراً كبيراً من المساواة فى المكانة الاجتماعية والثروة حتى يتسنى قيام المساواة فى الحقوق والنفوذ .. **كذلك تتطلب ـــ أخيرا ـــ الحد من الترف إلى أقصى درجة ، أو محوه ، لأن الترف إما أن ينشأ عن وجود أثرياء ، أو يؤدى إلى وجودهم ، ومن ثم يفسد الترف الغنى والفقير على السواء .. يفسد الغنى بحكم التملك ، فالترف لا يلبث أن يتملك صاحبه .. ويفسد الفقير إذ يثير فى نفسه**

الحسد والبغضاء .. وهو يسلم الدولة للنعومة والغرور ، ويسلبها مواطنيها ليجعل بعضهم عبيدا لبعض ..

الحكم الديمقراطي يصلح للآلهة .. لا للبشر !

ويمكن أن نضيف إلى هذا أن ليس بين الحكومات نوع عرضة للحروب الأهلية والاضطرابات ، مثل الحكومة الديمقراطية أو الشعبية ، إذ أنه ليس بين الأنواع نوع يتجه بشدة واستمرار إلى التغير والتحول مثله ، وليس بينها أيضا نوع يتطلب أكثر مما تتطلبه الديمقراطية من يقظة وشجاعة ..

ومن ثم فالحكم الديمقراطي الحقيقي الصحيح لا يتسنى إلا إذا كان الشعب من الآلهة .. فهو ليس للبشر !

أما الأرستقراطية فعلى ثلاثة أنواع : طبيعية ، وانتخابية ، ووراثية .. ويصلح النوع الأول للشعوب الساذجة فقط ، في حين أن الثالث هو أسوأ أنواع الحكم جميعا .. أما النوع الثاني فهو خيرها ، وهو أحقها باسم الأرستقراطية . وينحصر الحكم فيه في نفر قليل يتبوءونه بالانتخاب . وبهذه الوسيلة تغدو الاستقامة ، وحسن الإدراك ، والخبرة ، وكل الصفات التي تبرز صاحبها وتكسبه تقدير الجمهور ضمانات تكفل صلاحية الحكومة ..

وبالاختصار فإن خير الأمور وأقربها إلى الطبيعة ، هو أن يتولى أعقل

أفراد الشعب حكم الكثرة ، إذا توفرت الأسباب التى تؤكـد أنهم سيسيرون بالحكم لصالح الشعب ، وليس لصالحهم الخاص . ولا داعى لتضخيم جهاز الحكم ، وحشد عشرين ألف فرد كى يؤدوا ما يستطيع مائة مختارون من الصفوة أن يكونوا أفضل أداء له وأتقن ..

الملوك لا يقنعون بحب الشعب !

وليس بين ألوان الحكم ما هو أقوى من اللون الذى تتجمع فيه السلطة فى يدى الحاكم .. ولا ما يتاح فيه لإرادة واحدة معينة أن تسيطر على قدر أكبر مما تسيطر عليه فى هذا النوع .. إذ تجرى كل الأمور نحو غاية واحدة ، لا يتحتم أن تكون السعادة العامة .. فإن الملوك يرغبون فى السلطان المطلق ، فى حين أن الناس يهيبون بهم من أقصى الآفاق وأقدم العهود بأن خير سبيل إلى ذلك هو أن يتحببوا إلى شعوبهم .. وهذا صحيح ولكنه لسوء الحظ ينبذ دائما فى بلاط الملوك .. إذ لا مراء فى أن السلطة التى تنشأ عن حب الشعب هى أقوى السلطات ، ولكنها تكون غير ثابتة ولا مطلقة ، ومن ثم لا يقنع بها الحكام قط !

ومن ناحية أخرى ، إذا كان من المتعذر على دولة كبيرة أن تحظى بحكم صالح ، فإن من الأكثر تعذرا أن يتأتى هذا الحكم على يدى ملك فرد ..
ومن أسباب النقص التى تجعل الحكم الملكى — فى الوقت ذاته — أقل شأنا من الحكم الجمهورى ، أن صوت الشعب قلما يرفع إلى أعلى

المناصب — فى الجمهورية — من لا يكونون مثقفين ولا مقتدرين .. أما فى الملكية ، فكثيرا ما يكون الذين يصلون إلى القمة ، مجرد محتالين ، ومخادعين ، ودساسين ، ترفعهم مواهبهم الدنيئة إلى أرقى مناصب البلاط ، ثم لا يلبث أن يتكشف قصورهم وانحطاطهم واضحين للجمهور ..

ولقد قضى على التيجان أن تورث فى أسرات معينة ، ووضعت نظم لتوارث الحكم ، تفاديا لنشوب النزاع عند موت الملوك .. وهذا معناه أن الناس إذ قبلوا تعيين الحاكم بالوراثة بدلا من الانتخاب ، آثروا الطمأنينة الظاهرية على الإدارة الحكيمة ، وفضلوا أن يتعرضوا لأن يحكمهم أطفال أو طغاة أو مأفونون على أن يتنازعوا ويختلفوا على اختيار الملوك الصالحين !

وتتآمر كل العوامل على أن تنتزع من الشخص الذى يتولى السلطة على الآخرين ، الشعور بالعدل والحجى .. وكم من عناء قيل لنا إنه يبذل لتعليم الأمراء الصغار فنون الحكم ، ولكن تعليمهم لا يجديهم على ما يظهر ، ومن ثم فقد يكون من الأفضل أن يكون « فن الطاعة » هو أول ما يتعلمون .. وإذا أيقنا من أن التربية الملكية تفسد من يتلقونها ، فأى أمل يرجى من سلالة من الرجال ينشأون على هذه التربية ؟.. إذن ، فمن خداع النفس أن نخلط بين الحكم الملكى — المفروض فيه السوء — والحكم الذى يقيمه ملك « صالح » بمحض المصادفة ! ولكى ندرس الحكم الملكى على حقيقته ، يجب أن نتأمله حين يتولاه أمراء مستبدون

أو أشرار طالحون — وهى الحالة الغالبة — إذ أن من لا يكون منهم مستبدا أو طالحا بطبعه ، لا يلبث العرش أن يجعله كذلك !

الحرية ليست فى متناول كل الشعوب !

وليست الحرية بالثمرة التى يمكن أن تنمو فى جميع الأجواء ، ومن ثم فهى ليست فى متناول جميع الشعوب .. وكلما تأملنا هذا المبدأ — الذى وضعه مونتسكيو — ازددنا شعورا بصحته وصدقه .. وكلما ناقشناه انفسحت الفرص للعثور على أدلة جديدة لإثباته ..

والحق أننا كلما فكرنا ، وجدنا أن الفارق بين الدولة الحرة والدولة الملكية يتمثل فى أن كل شىء فى الأولى يستغل للصالح العام ، فى حين أن القوى العامة وقوى الأفراد — فى الدولة الثانية — تتبادلان التأثير ، فتستفحل إحداهما كلما ضعفت الأخرى .. ثم إن الحكم الفردى يزيد الناس تعاسة — بدلا من أن يزيدهم سعادة — حتى يتسنى له أن يحكمهم ويتحكم فيهم !

ومن ثم ، نرى فى كل جو أسباباً طبيعية يمكن على هديها تعيين نوع الحكم الذى يستلزمه البلد ، بل ونستطيع أن نتعرف منها على نوع سكان هذا البلد !

ولما كانت الإرادة الخاصة تعمل باستمرار ضد الإرادة العامة ، لذلك فإن الحكومة تسعى باستمرار ضد الأمة .. وبما أنه لا توجد إرادة

أخرى تعمل على تحقيق التوازن ـــ فى هذه الحال ـــ عن طريق مقاومة إرادة الحاكم ، فإن هذا لا يلبث أن يجد نفسه مسوقا ، إن عاجلا أو آجلا ، إلى أن يكبت أرادة الأمة ويطمسها ، فيخرق بذلك المعاهدة ، أو العقد الاجتماعى .. وهذا هو النقص الذى لا مفر منه ولا مخلص ، والذى يعمل منذ مولد الدولة على القضاء عليها ، كما تعمل الشيخوخة والموت على القضاء على جسم الإنسان !

حكم الفوضى .. وحكم الطغيان

ولانهيار نظام الحكم طريقان : أن ينكمش ويتقلص ، أو أن تتفكك الدولة وتنحل ..

وتقلص الحكومة عندما يتسلل زمامها من أيدى الكثرة إلى أيدى القلة ، أى من الديمقراطية إلى الأرستقراطية ، ومن الأرستقراطية إلى الملكية .. وهذا ما يسوقها إليه استعدادها الطبيعى ..

أما عندما « تتفكك » الدولة ، فإن سوء الحكم ، كيفما كان ، يسمى « فوضى » .. وزيادة فى دقة التمييز ، نقول إن الديمقراطية تتحلل إلى « حكم الصعاليك » ، فى حين أن الأرستقراطية تنحدر إلى « حكم الأعيان » ، كما أن الملكية تنحط إلى « الطغيان » .. غير أن هذه الكلمة الأخيرة مبهمة تحتاج إلى شرح .. ففى الاستعمال الدارج ، يكون الملك طاغية إذا حكم بعنف ودون مراعاة للعدالة والقانون .. أما فى الاستعمال

الصحيح ، فالطاغية هو الفرد الذى يستأثر لنفسه بالسلطة الملكية دون ما حق له فى ذلك ، ومن ثم فالطاغية والانتهازى مترادفان لمعنى واحد ..

هذا هو الاتجاه الطبيعى الذى لا مناص منه لأكثر نظم الحكم توطدا .. وإذا كانت إسبارطة وروما قد تلاشتا ، فأية دولة ترجو لنفسها بقاء ؟

فالدولة كالجسد الآدمى ، الذى يبدأ فى الموت بمجرد مولده ، ويحمل فى كيانه أسباب فنائه .. بيد أن كلا منهما يتفاوت مدى بقائه بقدر ما يكون عليه بنيانه من متانة أو ضعف . وبنيان الإنسان من صنع الطبيعة ، فى حين أن بنيان الدولة من نتاج الصنعة .. وإذا لم يكن فى طوق الناس أن يطيلوا أعمارهم ، فإن فى أيديهم أن يطيلوا عمر الدولة بقدر المستطاع ، وذلك بتهيئة خير بنيان ممكن لها .. وصحيح أن خير الدول بنيانا لابد أن تصير إلى نهاية ، إلا أن نهايتها تتأخر عن نهاية سواها ، ما لم يتسبب حادث غير متوقع فى انهيارها قبل حينها ..

قلب الدولة .. وعقلها !

وإذا كانت السلطة التشريعية هى قلب الدولة ، فإن السلطة التنفيذية هى عقلها الذى يسير أويحرك جميع أجزائها .. ولقد يصاب العقل بالشلل ومع ذلك يظل الفرد على قيد الحياة ـــ إذ يظل الفرد غبيا أو معتوها مع بقائه حيا ـــ أما إذا كف القلب عن أداء وظائفه ، فإن المخلوق يموت ..

ولما كان الحاكم لا يملك من سلطة سوى السلطة التنفيذية ، لذلك فهو

لا يعمل إلا عن طريق القوانين . ولما كانت القوانين لا تسرى إلا إذا صدرت عن الإرادة العامة ، لذلك لا سبيل للحاكم إلى العمل اللهم إلا إذا اجتمع الشعب كله وأعرب عن إرادته .. (ولو رجعنا إلى تاريخ روما ، لوجدنا أن أهلها كانوا يجتمعون كثيرا عن بكرة أبيهم — بحيث لم تكن تمضى أسابيع دون أن يعقدوا اجتماعا — فلم يكن الشعب يقتصر على ممارسة حقوق السيادة ، بل كان يضطلع أيضا ببعض أعمال الحكومة ، كالفصل فى بعض القضايا والمسائل) .

ولا يكفى للشعب الذى يجتمع على هذه الصورة أن يقيم بنيان الدولة بالتصديق على مجموعة من القوانين ، وإقامة حكومة دائمة ، أو اختيار الموظفين الذين يتولون الحكم .. لا يكفى هذا ، إذ قد تجد ظروف أخرى تستدعى اجتماع الشعب ، ومن ثم كان لابد للأمة من أن تنظم اجتماعات دورية فى فترات محددة لا يمكن إرجاؤها ولا إلغاؤها .. وكلما كانت الحكومة قوية ازدادت اجتماعات صاحب السيادة .. الشعب ...

وقد يصلح هذا بالنسبة للدولة المؤلفة من بلدة أو مدينة واحدة ، ولكن .. كيف يكون الأمر بالنسبة للدولة المؤلفة من مدن عديدة ؟ هل تقسم سلطة السيادة بين المدن ، أم تركز فى مدينة واحدة تصبح بقية المدن من رعاياها ؟

لا هذا ولا ذاك .. فالسيادة لا تجزأ ، وإلا أمكن القضاء عليها .. كما أن أية مدينة لا يمكن أن تغدو تابعة لمدينة أخرى ، لأن روح الدولة هى التوفيق بين الطاعة والحرية فى المدينة كما فى الفرد .. والواقع أنه إذا لم

يكن بد من أن تتألف الدولة من عدة مدن ، فلا ينبغى أن تؤثر إحدى هذه المدن بأن تكون العاصمة وقاعدة الحكم ، بل يجب أن يتنقل مقر الحكومة من مدينة إلى أخرى ، وأن يتنقل مكان اجتماع الشعب من إقليم إلى إقليم ..

وفى اللحظة التى يجتمع فيها الشعب اجتماعا قانونيا صحيحا بوصفه صاحب السيادة تتلاشى السلطة الشرعية للحكومة ، وتتعطل السلطة التنفيذية ، ويغدو شخص أقل المواطنين مكانة ، فى حصانة وقداسة شخص رئيس الوزراء ، إذ لا وجود للمندوبين فى حضور من انتدبوهم .. ومن ثم كان الأمراء والحكام يهابون اجتماعات الشعب ، ولا يألون جهدا فى صرف المواطنين عن عقدها .. فإذا كان المواطنون جشعين ، جبناء ، ضعاف النفوس ، أكثر حبا للراحة منهم للحرية ، لم يظل بهم الصمود أمام جهود الحكومة ، فلا تلبث سلطتهم أن تتلاشى وتنهار قبل أوانها .

نشأة المجالس النيابية والجمعيات الوطنية

ولكن ثمة سلطة تقوم فى بعض الأحيان وسيطا بين الأمة والحكومة الجائرة .. وذلك لأنه بمجرد أن تكف الخدمة العامة عن أن تكون الشاغل الأهم والأول للمواطنين ، بحيث يتحولون إلى المساهمة فى الخدمة بأموالهم بدلا من أشخاصهم ، فإن الدولة لا تغدو بعيدة عن الانهيار ..

لأنك تراهم عندئذ — إذا غدت الحرب لازمة — يدفعون أجور الجند ويتخلفون فى دورهم .. وإذا دعت الضرورة إلى أن يجتمعوا ، يرشحون نوابا يمثلونهم ، ويمكثون فى بيوتهم !.. ولا يلبثون بالتقاعد والمال ، أن يمكنوا للجنود من أن يستعبدوا البلد ، وللنواب من أن يبيعوها .!

وقد أدى فتور الوطنية ، والانصراف إلى المصلحة الخاصة ، واتساع الدولة ، والغزو ، وسوء الحكم ، إلى انتهاج أسلوب إنابة مندوبين أو ممثلين للشعب فى الجمعيات الوطنية ، التى آثر الناس فى بعض الدول أن يلقبوها بـ « السلطة الثالثة » .. وهكذا جعلوا الصالح الخاص للسلطتين الأخريين — الملك والحكومة — فى المقدمة ، والصالح العام فى المرتبة الثالثة !

والواقع أن السيادة لا يمكن أن توكل إلى مندوب ، لنفس السبب الذى لا يمكن لأجله أن تجزأ .. فهى فى صميمها تتمثل فى الإرادة العامة ، ومن ثم لا تقر الإنابة .. ولهذا فإن نواب الشعب ليسوا ، ولا يمكن أن يكونوا ، ممثليه ، وإنما هم وكلاؤه الذين لا يملكون أن يقطعوا بقرارات حاسمة باتة .. فكل قانون لا يقره أو يصدق عليه الشعب بنفسه وشخصه . وفى اللحظة التى يسمح الشعب فيها لنفسه بأن يكون ممثلا بمندوبين ينوبون عنه ، لا يغدو حرا ، بل لا يكون له وجود !

* * *

الوزراء خدام الشعب ، لا سادته !

وإذا ما تم توطيد السلطة التشريعية على الأسس الصحيحة ، فإن الخطوة التالية تكون إنشاء سلطة تنفيذية على نفس النمط .. وقد كان المعتقد أن هذا العمل عقد بين الشعب والحكام الذين يقيمهم على نفسه .. ولكن الواقع أن ليس ثمة فى الدولة سوى عقد واحد ، هو عقد التشارك ـــ العقد الاجتماعى ـــ الذى يلغى وجود أى عقد ثان .. أما نظام الحكومة فليس بعقد ، وإنما هو قانون .. **فأولئك الذين يعهد إليهم بتصريف السلطة التنفيذية ليسوا سادة الشعب ، وإنما هم مستخدموه . يستطيع أن يخفضهم عندما يشاء .. فالمسألة بالنسبة لهم ليست مسألة طاعة ، وهم حين يقبلون الاضطلاع بالوظائف التى تكلها إليهم الدولة ، ليسوا سوى مؤدين لواجبهم كمواطنين ، دون أن يكون لهم أقل حق فى أن يناقشوا شروط المهمة ..**

لذلك فعندما يقيم الشعب نظام حكم وراثى ، سواء كان هذا النظام ملكيا محصورا فى أسرة واحدة ، أو أرستقراطيا مقصورا على طبقة واحدة ، فإنه لا يكون ملتزما بالتزام ، وأنما هو يختار شكلا مؤقتا لتصريف شئونه ، يبقى إلى أن يختار شكلا آخر غيره ..

وليس فى الدولة قانون أساسى لا يمكن نسخه أو نقضه ، ولو كان العقد الاجتماعى ذاته .. لأنه إذا أجمع المواطنون — مجتمعين — على فسخ العقد ، فمن المستحيل أن يرتاب أحد فى أنه يصبح مفسوخا شرعاً وقانوناً ..

الكتـــاب الــرابع

العقد الاجتماعى لابد أن يصدر عن إجماع

وعندما تكون الدولة على شفا الانهيار ، لم يتبق سوى شبح أو هيكل ، وعندما تصبح الرابطة الاجتماعية مفسوخة فى قرارة كل قلب ، وتنتحل أوضع المصالح لنفسها ذلك الاسم القدسى : « الصالح العام » فـإن الإرادة العامة تغدو بكماء .. ولكن هذا لا يعنى أنها تلفت أو ماتت ، فهى — على العكس — دائمة ، نقية ، لا تتغير ولا تتبدل ، وكل ما فى الأمر أنها أصبحت خاضعة لإرادات أخرى اعتدت عليها .. ومن ثم فكلما ساد اجتماعات الشعب اتفاق الكلمة ، بحيث يقترب رأى الأعضاء مـن الإجماع ، كانت سيادة الإرادة العامة أعظم وأقوى ..

وليس هناك سوى قانون واحد يتطلب بطبيعته إجماعا تاما : ذلك هو العقد الاجتماعى .. لأنه أجدر الارتباطات بأن يصدر عن طواعية

واختيار ، إذ أن كل إنسان ولد حرا وسيدا لنفسه ، وليس لأحد أن يزعم — مهما كان — أن بوسعه أن يجعل أى إنسان تابعا له دون موافقته !

وعلى ذلك ، فلو وجد معارضون عند إبرام العقد الاجتماعى ، فإن معارضتهم لا تبطل العقد ، وإنما هى تحول دون عضويتهم للجماعة وحسب ، فيكونون أغرابا بين المواطنين .. حتى إذا استقرت الدولة ، ترتب على بقائهم فيها موافقة ضمنية على العقد الاجتماعى ، إذ أن الإقامة فى أراضى الدولة تتضمن خضوعا للسيادة ..

وفيما عدا هذا العقد البدائى ، فإن صوت « الأغلبية » — لا الإجماع — يكفى لإلزام الباقين دائما . وينشأ هذا عن العقد نفسه .. فعندما يعرض مشروع قانون على الشعب مجتمعا ، فإن الشعب لا يكون مطالبا بأن يذكر ما إذا كان يقر هذا المشروع أو يرفضه ، وإنما بأن يقرر ما إذا كان المشروع يتفق والإرادة العامة ، التى هى إرادته .. وكل إنسان يعرب عن رأيه حين يصوت ، وتستبين الإرادة العامة بإحصاء الأصوات ، فإذا تغلب الرأى المخالف لرأيى — مثلا كان هذا دليلا على أننى كنت مخطئا ، لا أكثر ولا أقل ، وأن ما رأيته لم يكن من الإرادة العامة فى شيء ..

* * *

الديمقراطية تقتضى انتخاب الحاكم بالاقتراع !

وهناك طريقتان لانتخاب الحاكم والوزراء ، هما : الاختيار ، والاقتراع .. ويرى مونتسكيو أن الانتخاب بالاقتراع ديموقراطى فى طبيعته ، وأنا أوافقه فى هذا ، ولكن .. كيف ؟.. إنه يرى أن الاقتراع اختيار لا ينطوى على ظلم لأحد ويتيح لكل مواطن قدرا معقولا من الأمل فى أن يخدم بلاده .. ولست أعتبر هذه أسبابا ..

لكننا إذا وضعنا نصب أعيننا أن انتخاب الحكام هو من أعمال الحكم وليس من أعمال السيادة ، استطعنا أن نرى السر فى أن الاقتراع طريقة ديموقراطية بطبيعتها : ففى الدولة الديموقراطية حقا تكون الوزارة — أو تولى الحكم — عبئا ، لا امتيازا أو نفعا .. عبئا ليس من العدالة إلقاؤه على فرد دون آخر ، وإنما القانون وحده هو الذى يلقيه على عاتق الشخص الذى يقع عليه الاقتراع ، ومن ثم فإن تساوى جميع الأفراد فى الظروف وقت الاقتراع ، وعدم توقف الاختيار هنا على أية إرادة بشرية ، يبدد وجود أى قصد يغير شمول القانون للجميع .. أى يبدد وجود أى تمييز بين الأفراد ..

وليس للاقتراع سوى مساوىء ضئيلة فى الدولة الديموقراطية الحقة ، حيث تكون المساواة تامة فى كل شىء : فى الأخلاق والمواهب والمبادىء والثروات ، مما لا يجعل ثمة فارقا بين أى فرد وآخر .. ولكننى قلت من قبل إن وجود ديموقراطية حقة ، ضرب من الأحلام ..

وعندما يجمع نظام الدولة بين الاختيار والاقتراع ، فإن المناصب التى تتطلب مواهب خاصة ، كالمناصب العسكرية ، يجب أن تملأ بالاختيار لا بالاقتراع .

على أنه لا مجال للاقتراع أو للاختيار فى نظام الحكم الملكى ، إذ يكون العاهل هو الأمير الأوحد والحاكم الأوحد ، ومن ثم فاختيار مساعديه حق له وحده .. ومجرد تغيير هذا الوضع ، يغير نظام الحكم ..

وكما أن القانون مظهر للإرادة العامة ، فإن الرقابة على الحكومة والقائمين بالحكم ، مظهر لرأى الشعب فيهم .. والهيئة التى تتولى هذه الرقابة ، لا تقرر رأى الشعب ، وإنما هى تعلنه فقط .. ولكن لا قيمة للرقابة إذا فقدت القوانين قوتها ، وضعفت السلطة المشرعة ..

الدين .. وعلاقته بالدولة

وينقسم الدين من حيث علاقته بالمجتمع إلى نوعين : عقيدة الفرد ، وديانة المواطن ، فالأولى لا معابد لها ولا طقوس ، وإنما هى تقتصر على إيمان الفرد — فى أعماق نفسه — بالله ، وتقيده بالالتزامات الأخلاقية

الخالدة ، فهى العبادة الحقة ، والدين الصحيح ، أو ما يمكن أن نسميه بالحق أو القانون الطبيعى المقدس .. أما الثانية ، فتتمثل وتنصب على الوطن : تمنحه آلهته ، وسنته وطقوسه ، ويبين القانون مراسمها وعباداتها ..

وهناك دين الإنسان ، المسيحية — لا مسيحية اليوم ، بل مسيحية الإنجيل ، التى هى جد مختلفة ! — وبمقتضى هذه الديانة السماوية السامية يعتبر الإنسان جميع البشر إخوة له ، بصفتهم جميعا أبناء إله واحد ، كما يعتبر أن المجتمع الذى يوحد بينهم لا يمكن أن يتحلل أو ينتهى ولو بالموت ..

ولكن هذا الدين لا يرتبط بالدولة بأى رباط معين ، ومن ثم فهو يدع القوانين بكل ما تنطوى عليه من قوة ونفوذ فلا يضيف إليها شيئا ، وهكذا تظل إحدى الروابط الكبرى التى توحد المجتمع معطلة عن العمل .. لا ، بل إنها تعمل ، ولكنها بدلا من أن تربط قلوب المواطنين إلى الدولة ، تجذب هذه القلوب بعيدا عن الأمور الدنيوية ، وهو ما يناقض الروح الاجتماعية كل المناقضة ..

فالمسيحية ، كدين ، روحانية صرفة ، لا تعنى بغير السماويات . ووطن المسيحى ليس فى هذا العالم .. إنه يؤدى واجبه ، بلا مراء ، لكنه يؤديه بشعور عميق من عدم المبالاة بنجاحه أوفشله فى بلوغ أهدافه .. فما دام هو لم يفعل ما يلوم نفسه عليه ، فلن يهمه أن تسير الأمور إلى نجاح أو فشل على هذه الأرض . إن المسيحية تعظ بالعبودية

والاتكال ، وروحها تلائم الطغيان إلى درجة كبيرة ، لأن المسيحيين الحقيقيين قد أعدوا ودربوا على احتمال العبودية ، دون كبير مبالاة ، بحكم عدم مبالاتهم بكل ما يجرى خلال حياتهم القصيرة على الأرض ..

ولكن .. لنعد ثانية إلى تعريف الحق والمبادىء المترتبة عليه . إن الحق الذى يخوله العقد الاجتماعى لصاحب السيادة على الرعايا ، لا يتجاوز — كما رأينا — حدود الضرورة العامة .. ولقد صدق مركيز دارجنسون إذ قال : « إن كل إنسان فى الجمهورية حر تمام الحرية فى أن يفعل كل ما لا يوقع الضرر بالغير » .. وهذا هو الحد الذى لا يمكن تعيينه بأدق مما ذكر دارجنسون .

وعلى هذا فالرعايا لا يسألون أمام الحاكم عن آرائهم ، اللهم إلا فيما يقتصر على الآراء التى تهم الجماعة .. ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى للجماعة أن يكون لكل مواطن دين . لأن هذا يحمله على أن يحب واجبه . ولكن تعاليم هذا الدين لا تهم الدولة وأعضاءها إلا فيما يتعلق منها بالآداب والأخلاق وبالواجبات نحو الغير . وفوق هذا ، فإن لكل إنسان أن يرى ما شاء من آراء ، دون أن يكون للحاكم صاحب السيادة حق الاطلاع عليها . لأنه طالما أن الحاكم لن يكون له أى سلطان فى العالم الآخر ، فليس من شأنه مثوبة رعاياه أو عقابهم فى ذلك العالم ، ما داموا فى هذه الحياة مواطنين صالحين ..

ومن هنا نرى أن هناك دينا « اجتماعيا » يحدد صاحب السيادة تعاليمه لا كمبادىء أو عقائد دينية — وإنما كأحاسيس وعواطف اجتماعية ،

لا يمكن للمرء بدونها أن يكون مواطنا صالحا ، أو رعية مخلصة .. وبينما هذه التعاليم لا تقسر أحدا على الإيمان بها ، فإنها تقصى عن الدولة كل من لا يؤمن بها ، لا ككافر زنديق ، ولكن كعدو للمجتمع ، عاجز عن أن يخلص فى حب القوانين والعدالة ، وعن أن يضحى — عند الحاجة — فى سبيل واجبه ..

فلتطرد الدولة من ينادى بالتعصب الدينى

وخليق بمبادئ وتعاليم العقيدة الاجتماعية أن تكون قليلة ، بسيطة ، دقيقة فى بيانها ولفظها دون ما شرح ولا تعليق . فتكون الإيجابية منها مقصورة على الإيمان بوجود إله قادر ، عليم ، رحيم ، بعيد النظر ، حكيم .. وبوجود حياة أخرى .. وبالسعادة التى تترتب على العدل والإنصاف . وبعقاب الآثم الشرير .. وبقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ..

أما التعاليم والمبادىء السلبية ، فإنى أقصرها على واحد ، ألا وهو : التسامح !.. فما دام لم يعد ثمة دين واحد لأية أمة ، وجب أن نتسامح مع جميع الأديان التى تتسامح مع سواها ، طالما أن تعاليمها ومبادئها لا تتضمن ما يعارض واجبات المواطن نحو وطنه ..

أما الذى يجرؤ على المناداة بالتعصب الدينى ، فجدير بأن يطرد من الدولة بلا رحمة !

(٢)

الإليـاذة

(هوميروس)

الإليــاذة .. والأوديسّة

فى القـرن العـاشر قبـل الميـلاد كان الشاعـر الضريـر الفـــقير « هوميروس » يتجول فى مدن اليونان من بلد إلى بلد ، منشدا أشعاره القصصية كلما وجد مستمعا يدفع الثمن ـــ (مثلما يفعل شعراء الربابة فى بلادنا) ـــ وقد تألفت من مجموعة أشعار ذلك الشاعر الموهوب ملحمتان خالدتان تتغنى بهما البشرية منذ ثلاثين قرنا . ولن تفتأ تتغنى حتى انقضاء الدهر ، هاتان الملحمتان هما « الإليــاذة » و « الأوديسة » .

أما الإلياذة فقد روى فيها هوميروس قصة « حرب طروادة » ، تلك الحرب القديمة الضروس التى نشبت بين مملكة « إسبرطــة » اليونانية ومملكة « طروادة » (وكانت تقـوم على شواطـىء آسيــا الصغرى) .. وقد كانت لنشوبها قصة طريفة ، بدأت يوم أغرت أفروديت (إلهة الحب والجمال) الأمير الشاب « باريس » ، ابن ملك طروادة ، بأن يبحر لزيارة ملك إسبرطة .. فلما حل ضيفا عليه فى قصره انتهز فرصة تغيب مضيفه عن القصر ذات يوم فاختطــف زوجته« هيـلين » ـــ التـــى كانت « أجمل نساء الأرض » فى ذلك العصر ! ـــ ثم فر بها إلى بلاده .. فلما اكتشف ملك إسبرطة الحادث

أرسل ألف سفينة محملة بالجنود والعتاد لمهاجمة طروادة واسترداد زوجته ، وبذلك بدأت الحرب الطاحنة التى استمرت عشر سنوات ، صمدت خلالها طروادة لحصار رهيب وهجمات متكررة ، حتى تفتقت حيلة الإغريق المهاجمين عن خدعة بارعة تسلل بها نفر منهم إلى داخل أسوار المدينة فى بطن حصان خشبى ضخم ، ثم فتحوا لجيشهم أبواب المدينة على مصاريعها فدخلها وحرق حصونها وقهر مقاومتها !

تلك كانت القصة التى رواها هوميروس فى « الإلياذة » .. أما الأوديسة ــ التى أخصها لك بعدها ــ فقد روى فيها الشاعر مغامرات أحد أبطال إسبرطة ، المدعو «أوديسيوس» ــ أو « عولس » ULYSSES كما أطلق عليه الرومان ــ فتعال معى نصغى إلى شاعر اليونان الضرير ينشدها الملحمتين من خلال الأجيال .

الإليــاذة

قصة الكتاب .. ومؤلف الكتاب ..

لكى تتذوق قصة « الإلياذة » الخالدة ، كما أحب لك أن تتذوقها ، ينبغى أن أمهد لك أولا الطريق الوعر إلى أغوار هذه الملحمة الإغريقية الشعرية الرائعة التى تتغنى بها الإنسانية منذ أجيال الأجيال ، التى ترنم بها اليونان كما ترنم اليهود بمزامير داود !.. وكادوا يقدسونها كما قدس هؤلاء «التوراة» ، فلقنوها لصغارهم .. وحفظها كبارهم عن ظهر قلب .

والواقع أن هذه « الأعجوبة » التى ترجع إلى تسعين جيلا ، ما تزال تحتفظ بكل روعتها وجدتها ، بل وخلودها الذى هو خلود الفن الصادق الأصيل .. وهى اليوم تبهر الأذهان بمثل السناء والتألق اللذين بهرت بهما الأسماع لأول مرة يوم تغنى بها المنشدون فى مآدب أمراء أثينا الأقدمين !

ولنقرأ وصف « أفلاطون » للأثر الذى كان يحدثه ترنيمها فى المآدب والمحافل يومئذ : « كان المنشدون حين يتغنون بها يرتجفون نشوة ، وتجيش نفوسهم طربا ، لمجرد سماعهم صدى موسيقى الأبيات التى يرددونه ! » .

* * *

تتداولها « الذاكرة » خمسة قرون !

وقد ظلت « الإلياذة » غير مكتوبة أو مسجلة إلا فى « ذاكرة » أولئك المنشدين نحوا من خمسة قرون ـــ أو على وجه التحديد منذ نظمها الشاعر الضرير « هوميروس » فى القرن العاشر قبل الميلاد ، حتى سجلتها البعثة التى ألفها « بيزيستراتوس » ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، خصيصا لهذا الغرض .. وقد تقصت أبياتها من مختلف حفاظها ومنشديها وحققتها تحقيقا دقيقا ثم سجلتها فى صورتها الرسمية الراهنة التى يعرفها بها العالم الحديث ، وأنشدتها على الملأ فى احتفال وطنى كبير .

حياة مؤلفها فى سطور

وإلى ما قبل القرن الثامن عشر كان المجمع عليه أن ناظم « الإلياذة » منشد ضرير من شعراء الإغريق يدعى هوميروس ، عاش فى فترة اختلف المؤرخون فى تحديدها فتأرجحت رواياتهم بصدد ذلك بين عام ١٢٠٠ وعام ٨٥٠ قبل الميلاد .. وكما اختلفوا بشأن تحديد العصر الذى عاش فيه هوميروس اختلفوا بشأن تحديد موطنه ومسقط رأسه .. فقال البعض إنه مدينة من مدن آسيا الصغرى .. وقال آخرون إنه جزيرة من جزر بحر إيجة !.. وقد بلغ من تنافس مختلف المدن والجزر على الاستئثار بفخر إنجاب « هوميروس » أن سبعا منها قد تنازعت فيما بينها هذا الشرف !.. وما يزال اللغز قائماً بغير حل إلى اليوم !

ولكن فى ختام القرن الثامن عشر نادى بعض الباحثين بنظرية جديدة مؤداها أن هوميروس ليس سوى « أسطورة » لم يكن لها فى الحقيقة وجود !.. أو — إن كان لها وجود — لم تكن لها غير أهمية ضئيلة تافهة .. وينسب أصحاب هذه النظرية ملحمة الإلياذة ، لا إلى هوميروس ، أو أى شاعر بعينه ، وإنما إلى مجموعة من الشعراء المجهولين الذين كانوا ينظمون القصائد الحماسية للعامة أثناء حصار اليونانيين لمدينة « طروادة » خلال الحرب القديمة المشهورة بهذا الاسم .. !

على أن أكثر الباحثين المحدثين ينبذون هذه النظرية ، جازمين بأن الإلياذة من خلق ذهن واحد .. إستنادا إلى الوحدة الملحوظة فى بنائها الفنى ، وطابعها ، وسياقها ..!

والخلاصة .. إنه برغم أن اسم « هوميروس » بات من أشهر الأسماء فى تاريخ الآداب العالمية قاطبة ، فإن العالم لا يكاد يعرف عنه حتى اليوم سوى النزر اليسير ، بل لا يكاد يقطع بما إذا كان رجلا واحدا أم مجموعة من الرجال !.. كل ما نخرج به من الروايات التقليدية المتداولة عنه — والتى تفتقر إلى دليل أكيد — أنه كان شاعراً ضريراً ، فقيراً ، مسناً ، يجول من بلد إلى بلد منشداً أشعاره ، كلما وجد مستمعا يدفع الثمن ..!

ملحمة الحب والحرب !

ومهما يكن من شيء ، فالمتفق عليه أن « الإلياذة » كانت ، وما تزال — وستظل أبد الدهر ! — صرحا ضخما من صروح الأدب الإنسانى ،

ومرجعا فريداً من مراجع المعرفة ، وأساساً راسخاً من أسس الأخلاق ، وديوانا خالدا من دواوين الحماسة والبطولة ، كان له على التربية .. والأدب .. والثقافة — الإغريقية والعالمية — أبلغ الآثار وأعظمها على مر الأجيال !

« والإلياذة » مدينة بخلودها إلى قوة موضوعها ، و « حرارة » أبياتها ، وسلاسة أسلوبها ، البسيط ، الوقور ، الرائع !.. وأخيرًا إلى تصويرها الناطق الحى لنفسيات الإغريق — رجالا ونساء — فى ذلك العصر من عصورهم الحافل بصور بطولتهم النادرة ، فى الحرب .. وفى الحب !

وتتألف « الإلياذة » من خمسة عشر ألف وخمسمائة من أبيات الشعر .. وهى تصور حوادث واحد وخمسين يوما من أيام السنة العاشرة والأخيرة من حصار الإغريق لطروادة .. ومن ثم فأنت لكى تقرأها وتستمتع بها على الوجه الأكمل ، لابد أن تعرف أولا قصة حرب طروادة .. والغرام العارم الذى كان السبب المباشر لاشتعالها .. والأبطال الذين اكتووا بنارها .. سواء من البشر ، أو الآلهة !

ذلك أن أبطال الإلياذة خليط من البشر والآلهة .. فمن أبطالها البشريين : باريس ، وهكتور ، ابنى ملك طروادة .. وعدوهما منيلاوس ملك اسبرطة ، وشقيقه أجا ممنون قائد جيشه .. أما أبطال الملحمة من الآلهة فمنهم « زيوس » كبير الآلهة — ويطلق عليه الرومان جوبيتر — وابنته « أتينا » إلهة الفكر — ويطلق عليها الرومان « منيرفا » — ثم أخيل ، أو « أشيل » أبرز أبطال جيش أجا ممنون .. وهيلين ،

زوجة ملك إسبرطة الفاتنة ، التى نشبت بسببها الحرب مع طروادة !..
إلخ .

فدعنى أقص عليك طرفا من أساطير هؤلاء الأبطال ، ومغامراتهم الشائقة فى الحب والحرب .. قبل أن أقدمهم إليك فى قصتهم الكبرى الإلياذة ، كى يتهيأ لك الجو المناسب لفهم هذه الملحمة على أكمل وجه ..

يغـار من ابنـه

كانت « لإله البحر » ابنة من الحور تدعى « تيتيس » ، وقعت عليها عين « جوبيتر » كبير الآلهة ، فأعجبته .. لكنه علم من « الأقدار » أن الحورية سوف تلد ابنا يصير أعظم من أبيه .. فأبى أن يكون هو ذلك الأب !.. ومن ثم قرر أن لا يضيفها إلى قائمة عشيقاته العديدات ، بل يزوجها إلى ملك بلد مجاور .. ولكى يضفى على الزواج رونقا وبهاء ، رأى أن يحضر بنفسه حفلة العرس ، مصحوبا بزوجته « هيرا » — إلهة الزواج — وغيرهما من آلهة جبل الأوليمب ...

التفـاحة دائمـاً

وكان إله البحر — والد العروس — قد تعمد أن يغفل دعوة إلهة « الشقاق » الكريهة إلى عرس ابنته ، لكن اللعينة ذهبت إلى ذلك الحفل متطفلة ، وهناك ألقت وسط المدعوين الصاخبين « تفاحة » كتبت عليها

هذا الإهداء الماكر : إلى « أجمل » الحاضرات !.. فتنازعت عليها ثلاث منهن : هيرا ، إلهة الـزواج ، وابـنتها « أتينـا » إلهة الفكـر ، ثم « أفروديت » إلهة الحب .. كل تزعم أنها أحق بها من سواها !.. وتحمس لكل إلهة من الثلاث فريق من أنصارها والمعجبين بها ، حتى كاد العرس يتحول إلى ميدان قتال !.. لولا أن استقر رأى الحاضرين على أن يحتكموا فى النزاع إلى راع وسيم الطلعة يدعى « باريس » ، يرعى قطيع ماشيته علي سفح جبل « إيدا » القريب ..

معشـوق النسـاء

ورغم أن الراعى الشاب « باريس » كان يكسب عيشه من هذه الحرفة المتواضعة ، فإنه كان سليل ملكين من أعظم ملوك ذلك الزمان : هما « بريام » ملك طروادة ، و « هيكوبا » ملكتها !. وكان عراف تنبأ له فى طفولته بأنه سوف يجلب الخراب والكوارث على وطنه ، فآثر والداه أن يضحيا به فى سبيل طروادة ، فتركاه على سفح تل ليموت .. لكن الأقدار هيأت له راعيا فقيرا عثر عليـه فأنقـذه ، وتبنـاه !.. وشب « باريس »فاتن الطلعة رائع الجمال ، إلى حد أوقع جميع الحوريـات والراعيات فى هواه .. أما هو فوقع فى هوى حورية تدعى « أوينون » ، وعاش الاثنان فى سفوح جبل إيدا حياة مترعة بالسعادة ..

* * *

الفتنة تسعى إليه !

وذات يوم .. جاءته الربّات الثلاث المتنازعات على التفاحة : أفروديت ، وهيرا ، وأتينا .. فألقين بالتفاحة الذهبية بين يديه ، وسألنه أن يحكم بينهن بالعدل ، فيمنحها لمن يراها أحقهن بها !

ثم شرعت كل واحدة تحاول أن ترشوه — بغير استحياء — كي ينحاز إلى صفها .. فوعدته « هيرا » بالسلطان والثراء .. ومنته « أتينا » بالشهرة والمجد الحربي .. أما « أفروديت » فقد عرضت عليه أن تزوجه من أجمل نساء الأرض !

وراقت له الأمنية الأخيرة أكثر من سابقتيها ، فمنح تفاحة « الجمال » الذهبية لإلهة الحب .

ولم تمض أيام حتى هجر « باريس » زوجته .. وماشيته .. وأبحر فى ركاب أفروديت .. إلى شواطئ اليونان !

أجمل نساء الأرض

فى تلك الأيام كان لملك « إسبرطة » زوجة تدعى « ليدا » ، راقت فى عينى كبير الآلهة « جوبيتر » ، فأنجبت منه طفلا وطفلة من الآلهة ، بعد أن أنجبت من زوجها طفلا وطفلة من البشر .. .. فلما كبر الأربعة زوجت الطفلة « البشرية » من (أجا ممنون) ملك « مسينيا » فجلبت عليه الكوارث ، كما سنرى .. أما الطفلة « الإلهية » — وكانت تدعى « هيلين » — فقد خطبها شقيقه

« مينيلاوس » فظفر بها وصار وريثا لعرش إسبرطة فى آن واحد !

وكان ملك إسبرطة الشيخ قد أدرك بفطنته ، أن زوج هيلين — التى كانت تعتبر أجمل نساء الأرض قاطبة ! — لا بد أن يتعرض بسبب جمالها لكثير من الأخطار والأحقاد .. فاقترح على جميع خاطبى ود هيلين ، قبل أن يزوجها من أحدهم أن يقسم كل منهم قسما لا حنث فيه على أن يرضخ لحكمه فلا يحاول التعرض لها فيما لو صارت من نصيب سواه ، بل وأن يخف لمساعدة الزوج الذى يظفر بها على استردادها ، فيما لو خطفها عاشق حسود ..!

وسنرى أن ذلك القسم كان السبب فى نشوب حرب طروادة !..

أفروديت تفى بوعدها !

وتم زواج هيلين من « مينيلاوس » ، الذى صار الآن ملكا لإسبرطة ، وعاش الزوجان أعواما سعيدين .. وذات يوم نزل ضيفاً عليهما فى قصرهما أمير شاب من أمراء طروادة .. ولم يكن الأمير سوى الراعى الوسيم « باريس » الذى منح أفروديت تفاحة « الجمال » الذهبية فوعدته بأن تمنحه بدورها أجمل نساء الأرض . وتنفيذا لوعدها نصحته بأن يعود إلى قصر أبيه ملك طروادة فيعرفه بنفسه ويحصل منه على السفن اللازمة كى يقوم برحلة بحرية إلى بلاد اليونان ، حيث تقيم هيلين « أجمل نساء الأرض » !.. فقد كان من سوء المصادفة أن الفاتنة التى وعدته بها أفروديت كانت زوجة لسواه !.. لكن عقبة « تافهة » كهذه ما كانت

لتعوق إلهة عن الوفاء بوعد قطعته على نفسها !.. وهكذا ، بتأثير تحريض ربة الحب والجمال ، انتهز الشاب « باريس » فرصة غياب مضيفه مينيلاوس عن القصر .. فاختطف زوجته « هيلين » وفر بها إلى طروادة .

وكانت خيانة وضيعة من جانب الضيف ، فإن مضيفه كان قد استقبله بكل مظاهر الترحيب اللائق بالأمير الشاب ، وأكرم وفادته كأعظم ما يكون الإكرام ! .. فلما عاد من غيبته فوقف على نبأ فرار زوجته مع ضيفهما ، بادر فأرسل رسله على عجل إلى جميع طالبى يد « هيلين » السابقين ، مذكرا إياهم بقسمهم القديم على نجدته فى مثل هذا الظرف بالذات ..!

وهرع الجميع من فورهم إليه .. ودعى رؤساء العشائر لإبداء رأيهم فى الموقف الحربى الذى قد يتطور إليه النزاع .. فوقع اختيار المجتمعين على « أجا ممنون » — زوج شقيقة هيلين ، وشقيق زوجها — كي يكون قائداً لهم فى عراكهم المقبل .. وبفضل دهاء أحد الحاضرين — وهو « أوديسوس » ملك أحد الأقاليم المجاورة — ضم إلى صفوفهم البطل الصنديد « أشيل » ابن الحورية « تيتيس » ، « التى حضرنا زفافها فى بداية القصة » .. وهو الذى كانت الأقدار قد تنبأت له بأنه سوف يصير أعظم من أبيه !

* * *

« أشيل » ونبوءة الآلهة !

ويقترن اسم « أشيل » فى أدب القدماء ـــ الإغريق والرومان ـــ بأكثر من أسطورة ، ويتوج بأكثر من هالة من هالات المجد ، حتى ليعتبر من أعظم أبطال القصص الخياليين ، وأحبهم إلى الأذهان ..

وتقول تلك الأساطير أن « الأقدار » حين حضرت زفاف أبويه تنبأت لهما بأن ابنهما الذى سيرزقان به سوف يحارب مملكة طروادة ، فيتساقط أبناؤها تحت ضربات سلاحه الفاتك البتار كما تتساقط سنابل الحنطة تحت ضربات منجل الحصاد !.. وأن حصون المدينة سوف تتداعى أخيراً أمام هجماته ، فيدخلها دخول الفاتحين ، لكنه سيفقد حياته آخر الأمر عند أسوارها !

ورسخت هذه النبوءة المفجعة فى ذهن الحورية العروس « تيتيس » ، فلما رزقت بابنها « أشيل » جعلت همها الأوحد أن تحميه بكل وسيلة من عدوان الأقدار ، وتكفل له الخلود على قيد الحياة .. فلما شب عن الطوق حملته إلى نهر « ستيكس » المقدس ، الذى يكسب ماؤه كل جسم يبلله مناعة أبدية ضد الموت !.. وهناك أمسكت بالصبى من عقب ـــ كعب ـــ قدمه وألقت به تحت الماء .. فاكتسب جسمه تلك المناعة ضد جميع قوى الفناء ، و لم يبق للموت منفذ إليه إلا عن طريق عقب قدمه الذى لم يبلله ماء النهر !

* * *

إمـرأة .. تعـاند الأقـدار !

وحين ترعرع الغلام تولى أحد العمالقة تدزيبه على القتال ، وصار يغذيه بنخاع أقوى الأسود المفترسة !.. لكن ذلك كله لم يطامن من مخاوف الأم ، التى ما فتىء يقض مضجعها القلق على ابنها الحبيب من مخاطر حرب طروادة ، العتيدة أن تنشب يوما فتقضى على حياته !.. وبتأثير هذا القلق ألبسته أمه ثياب النساء وألحقته بسلك « وصيفات » البلاط الملكى !.. لكن تنكره هـذا لم يخف على عين الملك الماكـر « أوديسيوس » ، فتنكر بدوره فى زى بائع متجول وذهب يعرض على وصيفات القصر بضاعته من الأساور والأقراط .. بعد أن دس بينها سيفا وخنجرا .. فلم يكد بصر الشاب المتنكر « أشيل » يقع على الأسلحة حتى بدرت منه حركة نمت عن خبرته بفنون القتال ! وهكذا انكشف أمره ، فأخذه أوديسيوس معه ليشترك فى مقاتلة أهل طروادة بغيـة استرداد ملكة إسبرطة — « هيلين » — من أسرهم ، والاقتصاص لها من آسريها ..!

العـذراء التى افتـدت وطنهـا !

وهكذا التأم شمل جيش الإغريق ، بقيادة « أجا ممنون » ، وأخذ أهبته للإبحار إلى شاطىء آسيا الصغرى — حيث تقع طروادة — لمهاجمتها وكسر شوكتها .. ولكن فى اللحظة الأخيرة هبت رياح مضادة عاقت

تحرك السفن التى تحمل الجيش المهاجم .. واستمر هبوب تلك الرياح أياما طويلة ، بحيث لجأ القوم أخر الأمر إلى استشارة عراف فى صدد ما ينبغى فعله لإرضاء الآلهة التى تصب عليهم جام غضبها على هذا النحو !.. فأفتى العراف بأن لا سبيل إلى إرضاء الآلهة غير التضحية بابنة « أجا ممنون » الكبرى على مذبح الفداء لوطنها !.. ولم يكن بد من الرضوخ لحكم الأقدار ، فأرسل الأب التعس إلى زوجته يطلب حضورها وبصحبتها ابنتهما الكبرى ، دون أن يصارحها بالسبب !

وحضرت الاثنتان .. وكانت الابنة مخطوبة للبطل الشاب « أشيل » ، فلما علم بفتوى العراف حاول عبثا إنقاذ خطيبته من مصيرها المفجع .. لكن القوم هاجوا عليه ، وفى مقدمتهم أخلص أنصاره ، واتهموه بخيانة وطنه .. وكادت تنشب فى صفوفهم فتنة عمياء .. لولا أن حسمت الفتاة الموقف ، هاتفة بأمها — والتعبير هنا للشاعر اليونانى « يوريبيدس » فى مسرحيته الخالدة التى استوحاها من الأسطورة : « أماه ، لقد أمعنت الفكر فى الأمر . أصغى إلى : إنى سأختار الموت ، وسأختاره راضية ، فلقد محوت الخوف من قلبى محوا .. إن الآلهة تطلب حياتى ، فهل أملك لطلبها رفضا !.. إذن فلتكن حياتى فداء لوطنى .. ولتنطلقوا لغزو طروادة ! » .

ثم تمضى العذراء إلى حتفها !

ويتغير اتجاه الرياح ، فتنطلق « الألف سفينة » التى تحمل جيش الإغريق نحو غايتها ، تمخر عباب بحر قاتم أكسبت الظلمة ماءه لون النبيذ ..!

وبذلك تبدأ حرب طروادة المشهورة !

والآن ، وقد هيأت لك بهذه المقدمة — فيما أرجو — الجو المناسب لمطالعة « الإلياذة » .. فلننتقل معا إلى حيث نقلب صفحات هذه الملحمة الأدبية الخالدة ذاتها .

الإليـــاذة

تبدأ الملحمة فإذا تسع سنوات قد انقضت على نشوب حرب طروادة ، والإغريق المهاجمون ما يزالون عاجزين عن اقتحام أسوار المدينة المحصنة .. وطروادة صامدة للحصار الطويل المرير ، لا يهن لها عزم ولا تلين لأبنائها قناة !

لكن الملل قد تطرق إلى نفوس جنود « أجا ممنون » ، والحنين إلى وطنهم وبيوتهم قد فعل فعله فى قلوبهم وأعصابهم .. سيما وقد اضطرهم طول الحصار إلى القتال فى جبهتين ، وتقسيم قوتهم إلى قوتين : قوة ترابط أمام أسوار المدينة العاصية ، متحينة الفرص لمحاولة فتح ثغرة فى حصونها الحصينة !.. والقوة الأخرى تشن غاراتها المتواصلة على المدن القريبة سعيا وراء توفير حاجات الجيش المختلفة من المؤن والطعام والذخائر ..

ومن هنا نشب النزاع الرهيب الذى جلب فى أذياله الكثير من الكوارث !

* * *

العذراء التى اختطفت !

فقد كانت بين البلدان التى هوجمت ونهبت على هذا النحو بلدة تدعى « كرايس » ، بها معبد مقدس من معابد الإله « أبوللو » ــ يقوم على شئونه كاهن اسمه « كرايسس » ــ عاث الجنود فيه فسادا وسلبا ، ونهبوا الكثير من محتوياته وكنوزه ، **ثم ختموا جرائمهم باختطاف ابنة الكاهن العذراء الجميلة « كربسيس » ، وإهدائها إلى قائد جيشهم « أجاممنون » باعتبارها نصيبه من الغنيمة !**

وهرع الكاهن المكلوم إلى معسكر جيش الإغريق ، حاملا فى جعبته كل ما ملكت يمينه من الذهب والحلى الثمينة ، كى يدفعها فدية للأعداء مقابل استرداده لابنته !.. ورغم أن أكثرية أولى الأمر فى الجيش كانوا راغبين فى قبول الفدية ورد الفتاة لأبيها ، فإن قائدهم الأعلى أجاممنون أبى هذا العوض ، بل وصرخ فى وجه الكاهن غاضبا : « **فلتغرب عن وجهى أيها الشيخ ، وإلاساء مصيرك .. فعندما يتم لى غزو طروادة سوف آخذ ابنتك معى إلى وطنى !** » .

ولم يجد الكاهن بدا من أن يعود أدراجه محزونا كسير الفؤاد ، مبتهلا إلى إلهه « أبوللو » أن يتولى عقاب الإغريق من أجل قسوتهم وعدوانهم ..!

واستجاب « أبوللو » لصلاته ، فهبط من مقره فى جبل « أوليمب » ، وراح يرمى بسهامه الذهبية المسمومة جياد الإغريق

وكلابهم ، ثم رجالهم .. فتفشى للحال فى معسكراتهم طاعون مخيف ، بحيث تكاثفت فوق الشاطىء سحب الدخان السوداء المتصاعدة من أكوام جثث موتاهم التى كانت تحرق أولا بأول ..!

استشارة المنجمين !

وراقبت « هيرا » — إلهة الزواج وزوجة جوبيتر — هذه الكوارث مشفقة ، وهى التى انحازت إلى الإغريق وحقدت على طروادة منذ منح « باريس » تاج الجمال لمنافستها أفروديت !.. فطلبت الآن إلى « أشيل » أن يدعو جميع الرؤساء والقواد إلى مؤتمر يبحثون فيه الأمر ، لعلهم يهتدون إلى مخرج ينقذهم من شر الوباء ..

ورحب أشيل بالفكرة ، ونفذها .. وحين عقد الاجتماع طلب إلى العراف « كالشاس » أن يقول كلمته فى الأمر .. **فوقف هذا — متجاهلا غضب أجاممنون — وطالب المجتمعين برد العذراء الأسيرة إلى أبيها ، دون أخذ فدية ما عنها .. بل وأوصاهم أن يرسلوا معها مائة ذبيحة كى تقدم إلى الإله « أبوللو » استغفارا له واستجلابا لرضاه ..!**

وغضب أجاممنون لدى سماعه هذا القول ، وثارت ثائرته .. فنهض أشيل يقسم له أن يكافئه الرؤساء جميعا أضعافا مضاعفة يوم تسقط طروادة إذا هو رد الأسيرة الآن إلى ذويها !

ونشب على الأثر نزاع شديد بين الرجلين ، كاد أشيل فيه أن يستل سيفه ليطعن به غريمه، لولا أن أوحت إليه الإلهة «هيرا» أن يتذرع بالصبر

ويتجاهل إهانة أجاممنون ، ففعل ، وهو يقسم لنفسه بصولجانه الذهبى أن ينتقم من خصمه يوم تحين له الفرصة .!

انتقــام أجاممنون !

لكن أجاممنون كان السابق إلى الانتقام ، فإنه لم يطلق سراح أسيرته « كريسيس » مرغما ، كى تعود إلى أبيها ، **حتى طالب غريمه أشيـل بالتنازل له عن أسيرته الخاصة « بريسيس » التى كانت نصيبه مـن الغنيمة عقب إحدى غارات الجيش على المدن المجاورة !.. وأردف القائد طلبه بإرسال اثنين من جنوده إلى خيمة أشيل كى يحضرا له الحسناء قسرا ، إذا اقتضى الأمر ..!**

ولم ير أشيل جدوى من المقاومة ، فأمر بتسليم « بريسيس » إلى الرسولين ، واندفع غاضبا إلى مخدعه وهو ينثر من لسانه وقلبه حمم سخطه على القائد الظالم !..

وفى نوبة حنقه الأسود أقسم لينفضن يده من القتال .. ثم ناشد أمه « تيتس » أن تبتهل إلى كبير الآلهة « جوبيتر » ــ المعجب بجمالها ! ــ وتسعى لديه بكل الوسائل كى ينصر الأعداء ــ أهل طروادة ــ على خصومهم الإغريق فى الحرب !

* * *

الخلافات الزوجية .. عند الآلهة !

لكن « جوبيتر » كان فى ذلك الوقت متغيبا عن جبل « أوليمب » يحتفل بالعيد مع رعاياه الأتقياء أهل « إيثيوبيا » .. فلما عاد من رحلته ، بعد اثنى عشر يوما ، خفت إليه الحورية ذات القدم الفضية « تيتس » ــ والدة أشيل ــ كى ترفع إليه ابتهالات ابنها .. فلما صعدت جبل الآلهة ، ومثلت فى حضرة « رب الأرباب » ، ركعت على ركبتيها أمامه ولمست بيسراها ركبته ، وبيمناها لحيته ــ كالعرف المتبع ــ ثم توسلت إليه أن ينصر طروادة على أعدائها الإغريق ، الذين أذلوا ابنها الحبيب ..!

فوعدها جوبيتر بأن يذكر ملتمسها هذا ، وأكد وعده بإيماءة من رأسه « فتماوج الشعر على رأسه واهتز جبل الأوليمب بأسره ! » .

وهنا نرى أنفسنا فى السماء ، فى مجلس الآلهة .. وقد اجتمع شمل جوبيتر ، وزوجته هيرا ، وأبوللو ، وأفروديت ، وزوجها فولكان (إله النار والمعادن ، ابن جوبيتر وهيرا) .. فتؤنب هيرا زوجها على تعضيده لأهل طروادة ، ويبين فى لهجتها الحقد على هؤلاء بسبب انحياز أميرهم « باريس » إلى منافستها أفروديت ضدها هى !.. وهكذا يشتبك الزوجان الإلهيان فى شجار لا يهدىء من حدته غير تدخل ابنهما فولكان ، الذى يطوف حول المجتمعين يظلع بقدمه العرجاء حاملا كأس

النبيذ فى يده ، مناشدا أمه وأبيه بخطاب طويل يثير ضحك الآلهة ، جاء فيه : « **هذه المشاجرات التعسة التى يألفها البشر لا تليق بنـا نحن الآلهة ، فدعوها لأولئك الحمقى الذين يقضون أيامهم فى كفاح عقيم لا معنى له ، ولنقض نحن أيامنا فى سلام أبدى وفرح دائم .. وأنت يا أماه ، أطيعى زوجك ومولانا ولا تفصمى عرى الاتحاد المقدس للسماء .. أطيعيه ، واصبرى !** » ..

ويدور فولكان على المجتمعين بكؤوس النبيذ ، فيشربـون نخب وحدتهم المقدسة وهم يضحكون ضحكا تهتز منه جدران السماوات ..

الخـدعة الكـبرى !

وتذعن الزوجة لزوجها فتطلق يده فى التصرف ، راغمة !.. ولكنه مع ذلك يؤثر — حرصا على سلامه البيتى — أن لا ينحاز إلى جانب أهل طروادة صراحة ، وإنما يعمل إلى حل ماكر ، فينتهز فرصة استغراق الآلهة والبشر جميعا فى النعاس ويرسل إلى أجفان أجاممنون حلما خداعا يهيب به أن « **انهض يا أجاممنون ، وشن هجوما ساحقا على طروادة ، فلقد حل يوم سقوطها المحتـوم ، ولسوف تحارب الآلهة فى صفك ، ضدها !** » .

وينهض القائد من فوره فيرتدى عباءته ويتمنطق بسيفه ، ثم يتناول صولجانه الذى يرمز إلى تفوقه على جميع أمراء اليونان ، ويدعو حراسه إلى

أن ينفخوا فى النفير ليوقظوا الجيش للقتال .. وحين يتخذ الجنود أهبتهم لامتطاء جيادهم وعرباتهم الحربية والانطلاق بها فى هجمة جبارة نحو أسوار طروادة ، يبتهل أجاممنون إلى جوبيتر أن يكفل له النصر ..

لكن « رب الأرباب » لا يعيره سمعاً !

هيلين . تلقى عن وجهها القناع !

وحين رأى أهل طروادة جيوش خصومهم تتجمع وتزحف نحو أسوار مدينتهم انطلقوا يتصدون لهم وهم يطلقون صرخات أشبه بصرخات سرب من الطيور الجارحة !.. أما الإغريق فقد اشتبكوا فى القتال وهم لائذون بالصمت المطبق ..

وكان يتقدم صفوف الأولين ابنا ملك طروادة : هكتور ، وباريس .. فاندفع الأخير بجواده إلى خارج أسوار المدينة ، صائحا بأعدائه أنه على استعداد لمنازلة أقوى أبطالهم وأشدهم بأساً !.. وإذ ذاك قفز غريمه « مينيلاوس » — ملك إسبرطة وزوج « هيلين » ! — من عربته الحربية متصديا لمنازلته .. لكن الأمير الشاب — الذى كان له وجه أسد وقلب غزال ! — لم يكد يراه حتى أجفل متراجعا ، كمن برز له أثناء سيره منفردا ثعبان سام !.. فلما رأى شقيقه هكتور جبنه ، وبخه وانتهره بشدة .. فخجل باريس من نفسه وقبل أن يبارز خصمه مبارزة فردية ، على أن تصبح هيلين من نصيب الظافر منهما ، ويوقف القتال بشأنها بين

البلدين !

ومضى هكتور الباسل إلى صفوف الإغريق فأبلغهم هذه الرسالة ، فقبلها مينيلاوس مرحبا .. **وفيما إجراءات المبارزة تعد أقبل بشير الآلهة على هيلين حيث كانت فى قصرها فأنبأها بخير تأهب الغريمين للمبارزة من أجل الظفر بها !.. فاتشحت هيلين بعباءة بيضاء ومضت إلى أسوار المدينة ، حيث جلس ملك طروادة وشيوخها وأولو الرأى فيها ..!**

وإنها المرة الأولى التى تظهر فيها هيلين لقارىء الإلياذة .. فكيف يظهرنا هوميروس على مبلغ جمالها ؟ أيصفه لنا وصفا تفصيليا دقيقا ؟ كلا ، فتلك طريقة كتاب القصص فى العصور التالية لعصر هوميروس ، لكنها ليست طريقة هوميروس !.. وإنما هو يصور لنا جمال المرأة كما ينعكس فى تعليقات شيوخ المدينة الذين تمر بهم فى طريقها إلى مكان المبارزة .. فإذا هم يلوكون بين ألسنتهم ، مغمغمين ، عبارات الحنق والسخط عليها ، ويصبون على رأسها اللعنات باعتبارها منشأ البلاء وسبب الحرب الضروس التى يكتوى بنارها الشعبان !.. لكنهم يجدون أنفسهم مع ذلك مضطرين إلى أن يعترفوا ، راغمين ، أنها على قدر من الحسن الباهر يؤهلها لأن تكون ملكة السماوات !.. وعلى حد تعبير هوميروس : « .. **كانت ملكة إسبرطة تقترب متهادية نحو سور طروادة ، فلم يملك الشيوخ أنفسهم من الإحساس بوطأة جمالها وسطوته التى لا تقاوم .. فصاحوا برغمهم : (لا عجب فى أن يشعل**

هذا الحسن السماوى نار الحرب على الأرض طيلة تسع سنوات !.. أى جلال آسر لها !.. وأية طلعة مهيبة ! إنها تختال كإلهة ، وتبدو كملكة !.. ومع ذلك ، فلتحجبى يا سماء هذا الوجه الفـاتك .. ولتحمى شعب طروادة من الفناء !) » .

وهكذا أقبلت هيلين بابتسامتها الخالدة التى تطالعنا من خـلال الأجيال ، وطلعتها التى « أطلقت نحو طروادة ألف سفينة مسلحة ، وأحرقت أبراج حصونها التى تناطح السحاب ! » .. أقبلت ولحظها الفاتك وخطوها المهيب يتغنى بسحر أجمل غادة خلبت الألباب وسبت العقول !

« باريس » وملك إسبرطة .. يتبارزان !

وتأخذ المبارزة مجراها ، فيتولى هكتور « أوديسيوس » تحديد مكان وقوف الخصمين . ويجريان قرعة لاختيار الذى يبدأ منهما بإطلاق رمحه على الآخر ، فيفوز باريس بالأولوية !.. وهكذا يطلق الشاب رمحه على منيلاوس ، فيصيب درعه ، لكنه لا ينفذ منه !.. ثم يطلق مينيلاوس ، رمحه ، فيصيب درع باريس ، لكنه لا يجرحه !.. وأثناء المبارزة يتمكن الأول من تشديد قبضته على خوذة الشاب المفتون ، فيجرجره بواسطتها فوق أرض المكان ، فى اتجاه معسكرات الإغريق ..!

وفجأة تنقض أفروديت من السماء فتكسر طرف الخوذة فى يد ملك إسبرطة وتحمل « باريس » وسط سحابة كثيفة من الغبار إلى حجرته داخل حصون طروادة !.. ثم تهرع إلى هيلين فتنبئها بما جرى لغاصبها ..!

وإذ ذاك يعلن أجاممنون هزيمة الخصوم ، ما دام بطلهم قد اختفى من الميدان !.. ويطالبهم بتسليم « هيلين » ، حسب شروط المبارزة ، ودفع التعويضات الكاملة عن كافة الأضرار والمتاعب التى لحقت به وبجيشه وشعبه طيلة السنوات التسع التى استغرقها حصارهم لطروادة !

ويختلف الفريقان فى تحديد كل من الظافر والمهزوم !.. وينقسم الآلهة أنفسهم فى هذا الصدد ، فينحاز جوبيتر إلى صف شعب طروادة .. وتنحاز زوجته « هيرا » وابنته « أتينا » إلى صفوف الإغريق !.. ثم تتنكر الابنة فى زى امرأة من أهل طروادة وتغرى أحد أقطاب جيش هذه المدينة بأن يطلق سهما من جعبته على ملك إسبرطة ، كى يخرق الهدنة بين الفريقين فيستأنف القتال ، ثقة منها بأن استئنافه فى صالح الإغريق — بعد أن تحرص على ألا يصيب السهم هدفه فى مقتل ..!

وتفلح الحيلة فى تحقيق الغرض منها .. فلا يكاد أجاممنون يرى دم أخيه مينيلاوس يسيل حتى تثور ثائرة سخطه على الأعداء ، فينقض الهدنة ويهيب بجنوده أن يواصلوا القتال !

* * *

أفروديت تشترك فى القتال !

وتحتدم المعركة يومين كاملين ، يلمع خلالهما نجم « ديوميد » أحد أبطال الإغريق ، الذى يبلى فى القتال أحسن البلاء ، حتى ليصيب بأذاه « أفروديت »ذاتها .. ذلك أن الآلهة أنفسهم قد اشتركوا فى المعركة الهائلة بنصيب فعلى ، فحاربوا كما يحارب البشر ، وجرح بعضهم كما يجرح البشر — وإن لم يعرضوا مثلهم للموت !..

وتضطر أفروديت بتأثير إصابتها إلى أن تطير إلى موطنها فى السماء ، حيث تسهر أمها « ديون » على تمريضها .. بينما تسوء الأحوال فى صفوف جيش طروادة ، فلا تكاد الجماهير تلمح « هكتور » عند أسوار المدينة حتى تتكأكأ عليه زوجات وأمهات المحاربين الغائبين ، يستفسرون منه عن أنباء القتال .. فلا يجيبهن بغير مطالبتهن برفع صلواتهن إلى الآلهة ، كى تحمى طروادة من أذى العدو الرهيب « ديوميد » !

***

دموع الزوجة .. وصرخات الطفل !

ثم يمضى هكتور إلى بيته ، ليرى زوجته « أندروماك » ، فيعلم أنها خرجت لتلقاه عند أسوار المدينة ، ومعها طفلها الرضيع !.. فيعود ليبحث عنها ، حتى يعثر عليها .. فتستعطفه باسم طفلهما ، وشبابها ، وأبيها وأخواتها السبعة الذين قتلهم البطل « أشيل » فى يوم واحد ، وأمها التى لحق بهما بدورها !.. تستعطفه باسمهم جميعا أن يرأف بحالها فلا يعرض نفسه لمخاطر القتال .. العقيم !

فيجيبها فى أسى ظاهر : « **أعلم أن شعبنا وبلادنا قد كتب عليهما الهلاك .. لكنى لا أرثى لحالهما بقدر ما أرثى لحالك أنت يوم تقعين أسيرة فى أيدى الإغريق ، فيسومونك الخسف والهوان .. ويتندرون فيما بينهم ساخرين : (هذه الأسيرة كانت زوجة هكتور ، أمير طروادة)** » .

ثم مد الأب ذراعيه إلى طفله .. لكن الطفل أجفل مذعورا من الخوذة النحاسية اللامعة والريشة المتدلية منها !.. فضحك هكتور وألقى بالخوذة إلى الأرض ثم أخذ ابنه بين ذراعيه وقبله ، مبتهلا إلى إلهه أن « يصير يوما عظيما بين أهل طروادة ، وقرة عين أمه ! .. » .

وهنا بكت أندروماك ، وإن حاولت جاهدة أن تبتسم خلال دموعها !..
فطيب زوجها خاطرها قائلا إن كل إنسان قد كتب له قدره المقسوم ،
وأوصاها أن تنصرف إلى مهام بيتها وطفلها تاركة للرجال أن يفكروا فى
القتال !.. ثم تناول خوذته فلبسها ، بينما انصرفت الزوجة بطفلها وهى
تلتفت إلى الوراء كل بضع خطوات ، لتودعه بنظرة أخيرة ..!

مصرع البطل المزيف !

وانطلق هكتور ، ليشتبك بعد قليل فى مبارزة مع البطل الإغريقى
« أجاكس » .. ويستمر النزال بينهما سجالا حتى يهبط الظلام ، فينتهى
إلى غير نتيجة حاسمة .. بينما يكون الإغريق قد أقاموا المتاريس
والاستحكامات لحماية سفنهم الرابضة على الشاطئ . لكن هكتور لا
يلبث أن يهاجمهم على رأس قوة كبيرة ، وتحتدم المعركة بين الفريقين
زمنا ، يكاد لواء النصر يعقد خلاله لهكتور وقومه ، الذين ساقوا
أعداءهم أمامهم نحو الشاطئ ، وتأهبوا لإشعال النار فى سفنهم ..!

**.. و « أشيل » ما يزال فى خيمته ، محجما عن القتال ، يذكى فى قلبه
جذوة حقده على أجاممنون .. إن سفن قومه توشك أن تذهب طعمة
للنيران ، لكنه مع ذلك لن يتحرك لنجدتهم ..!**

لكن صديقه « بارتروكلاس » يدخل عليه مقترحا أن يستعير منه

درعه وسلاحه البتار ، كى يلقى بهما فى روع الأعداء أنه البطل المرهوب « أشيل » ، وبذلك يوقع الذعر فى قلوبهم !.. فلئن أبى أشيل أن يخف لنجدة قومه بنفسه ، فلا أقل من أن يدع غيره ينجدهم !

ويذعن البطل لتوسلات صديقه ، فيعطيه زيه .. وبركته .. وينطلق هذا إلى الميدان ، فلا يكاد الأعداء يرونه حتى يحسبونه خصمهم المخيف « أشيل » فيدب الرعب فى صفوفهم ويتراجعون أمام الإغريق فى غير نظام .. وكلما فروا طاردهم باتروكلاوس بلا هوادة.. حتى يطير درعه منه تحت ضربة قوية من أحد مهاجميه .. وإذ ذاك ينتهز « هكتور » الفرصة فيطعنه الطعنة القاتلة !

خروج الأسد من عرينه !

وحين يبلغ النبأ مسامع أشيل يجن لوعة وحزنا على صديقه الشهيد .. فيرتمى على الأرض ويروح يهيل التراب على رأسه ، ويمزق شعره ، ويصرخ طلبا للانتقام !..

وتصك صرخاته أذنى أمه الحورية « تيتيس » فى مكمنها فى أغوار البحر ، فتهرع إليه كى تشاركه حزنه وتواسيه .. ولكن أنى له أن يتعزى وقد فقد عدته الحربية الكاملة التى أهدته إياها الآلهة ! — وفقدها إلى غير رجعة !.. بعد أن انتزعها هكتور من جثة باتروكلاوس وأخذها لنفسه !؟ .. إن معنى هذا أنه قد قضى عليه أن يطلق القتال إلى الأبد ؟

وإزاء هذا المأزق الحرج تسرع الأم إلى ابنها « فولكان » — إله النار والمعادن — تناشده أن يصنع لابنها حلة مدرعة جديدة وعدة كاملة من السلاح ، فيقبل توسلاتها واعدا بتسليم الحلة والعدة إليها فى فجر اليوم التالى ..

وفى الموعد المضروب تتسلم الأم ما أوصته بصنعه ، فإذا هو قد تفانى فى إتقانه حتى جاء أروع من كل ما تزود به محارب من قبل !.. وتهرع الحورية بحملها الثمين إلى ابنها ، الذى توسط بعض شيوخ القوم فى إزالة ما بينه وبين أجاممنون من جفاء ، فيرتدى « أشيل » حلته الجديدة ودروعه ويأمر بإعداد عربته الحربية وتزويدها بأسرع الجياد .. وقبل أن ينطلق بها لملاقاة الأعداء يستدير إليه جواد من جياد العربة ، كانت « هيرا » قد منحته موهبة التنبؤ بالغيب ، قائلا له وهو يحدجه بعينين ناريتين : « **أشيل » إنك قد كتب لك أن تنتقم لمصرع صديقك (باتروكلاوس) ، لكن مصرعك أنت ليس ببعيد !..** » فيجيبه البطل الصنديد صائحا : « **أعلم ذلك ، لكنى لا أعبأ به ، فليصبنى ما قدر لى !** » .. ثم يطلق صرخة مدوية يرن صداها كأنها نفير المعركة ، ويطلق لجياد العربة العنان تنهب به الأرض نهبا إلى أسوار طروادة !

لقـاء الغـريمين !

أما أهل طروادة ، فلا يكادون يلمحون البطل مندفعا نحوهم بعربته

كشهاب من نار ، ورمحه فى يده ، ودرعه يلمع على صدره ، وخوذته تتألق على جبينه ، وكأنه إله الحرب !.. حتى تجمد دماؤهم فى عروقهم هلعا ، فيعم الاضطراب صفوفهم ، ويتساقط أبطالهم صرعى ، واحد فى إثر الآخر !.. ثم يشطر الجيش شطرين : فيفر فرار الأرانب المذعورة إلى داخل أسوار المدينة .. ويفر النصف الآخر نحو النهر ، حيث يطاردهم أشيل بسيفه ويمعن فيهم ذبحا وتقتيلا ، حتى يصطبغ ماء النهر بلون الدم .. ولا ينقذ البقية الباقية منهم غير هياج الأمواج على حين غرة بفعل عاصفة مروعة ..!

وبعد أن يأسر أشيل اثنى عشر من جنود الأعداء ، كى يضحى بهم على المذبح عند الاحتفال بتشييع جنازة الشهيد « باتركلاوس » .. يعود إلى السهل الذى جرت فيه المرحلة الأولى من المعركة ، والذى لم يبق فيه الآن غير أشلاء مبعثرة .. وفيما هو يتفقد المكان ، يجد نفسه وجها لوجه أمام غريمه : هكتور ! ـ وكان آخر من بقى خارج أسوار طروادة بعد فرار جنوده جميعا إلى جحورهم فى داخل المدينة ، أو إلى حتفهم فى قاع النهر ..!

لكن بطل طروادة الباسل قد صار بدوره أرنبا مذعور !.. فهو لا يكاد يلمح غريمه الباسل بطل إسبرطة ، حتى ينخلع قلبه الذى كان على الدوام شديد البأس ، فيطلق ساقيه للريح .. كظبى يفر من نمر أرقط .. ويروح يدور حول أسوار طروادة ثلاث مرات ، محاولا أن يجد ثغرة ينفذ منها إلى داخل المدينة !.. وفى هذه الأثناء تتآمر الإلهة « أتينا » ضده كيما

تنصر أصدقاءها الإغريق ، فتتنكر فى هيئة شقيق له .. وبهذه الصفة تنصح له أن ينازل غريمه ، مؤكدة له أن النصر سيكون حليفه !

وينخدع هكتور بهذا الإيحاء .. فيتوقف ليواجه أشيل !.. وتتم المبارزة بين البطلين ، على مشهد من فلول جنودهما الذين أطلوا من خنادقهم متلصصين .. ومشهد من الآلهة الذين أطلوا من عروشهم السماوية ليتابعوا المعركة الحاسمة !.. فيصرع أشيل خصمه بطعنة تصيب منه مقتلا !..

انتقـــام أشـــيل !

وحين يغمض الموت عينى هكتور ، إلى الأبد ، يعمد إلى التمثيل بجثته — انتقاما لصديقه باتروكلاس ! — فيقيدها من قدميها إلى عربته ، ويجرجرها بها حول أسوار المدينة .. تسعة أيام متوالية !

وفى اليوم التاسع يمضى الأب المكلوم إلى خيمة أشيل ، حاملا له فدية من الهدايا والعطايا الثمينة .. فلا يكاد يؤذن له فى الدخول على قاتل ابنه ، حتى يخر على ركبتيه جاثيا أمامه ، مقبلا اليدين اللتين سفكت دمه — ودم الكثيرين من أبنائه الآخرين ! — مناشدا إياه ، ودموع المذلة تهطل على خديه ، أن يعفو عن جثة هكتور ويكف عن غضبه وانتقامه ، وتمثيله بها على ذلك النحو الموجع المهين !

فيتحرك قلب أشيل ، ويذكر أيضا وصية أمه التى نقلت إليه رجاء

الآلهة أن يصفح عن غريمه الصريع .. وهكذا يقبل الشاب من الأب الذليل فديته لجثة ابنه ، ويأذن له فى أن يحملها إلى حيث يحتفل بدفنها الاحتفال اللائق بمكانة صاحبها ، ومكانة أبيه .. ملك طروادة !

استقبـال وتشييـع !

وتستقبل الجثة داخل المدينة بخليط من مظاهر الفرح والحزن : الفرح باستردادها ، والحزن لفقد صاحبها ، البطل الذى كانت ترمقه القلوب !..

وبينما يحتفل الإغريق ببطلهم المنتصر احتفالات صاخبة تقام فيها المآدب ، وتعرض الألعاب ، وتمنح الجوائز !.. تلبس طروادة الحداد على فقيدها العظيم ، وتسكب على نعشه قلوبها التى فطرتها الفجيعة ..

.. وفى مقدمة القلوب المفطورة التى تنتحب على نعش البطل الصريع : قلب أمه .. وزوجته أندروماك .. وهيلين .. التى تشيعه بمرثية بليغة باكية !

ثم يحرق جثمان هكتور . ويجمع رماده فى وعاء من الذهب ، يدفن فى القبر !

* * *

نهـاية أشـيل

وبوفاة هكتور وحرق جثته على هذا النحـو ، تـنتهى « إليـاذة » هوميروس ، بغير أن تنبئنا بمصير بقية أبطالها ..!

لكننا لو رجعنا إلى بعض شعراء الإغريق الذين عاشوا فى عصور تالية لعصر هوميروس ، لاستطعنا أن نعرف منهم شيئا عما وقع لأشيل ، وباريس ـــ وغيرهما من أبطال الإلياذة ـــ بعد مصرع هكتور ..

أما أشيل فتختلف فى شأنه روايات الأساطير .. فهناك أسطورة قديمة تقول إنه قتل بيد الإله « أبوللو » ، الذى تنكر فى زى الشاب « باريس » واشتبك معه فى معركة حامية أثناء القتال الذى استمر بين الفريقين عند أسوار طروادة .. وخلال عراك الرجلين أفلح باريس فى أن يطعن خصمه فى عقب قدمه الذى لم يبلله ماء نهر (يتيكس) المقدس يوم أردات أمه الحورية « تيتس » أن تحصنه ضد الموت !

لكن هناك أسطورة أخرى تصور نهاية « أشيل » تصويرا مخالفـا فتروى أنه تورط فى حب ابنة ملك طروادة ، الأميرة « بوليكسينا » ، ومضى معها ـــ غير مسلح ـــ إلى معبد الإله (أبولو) كى يعقدا زواجهما فيه .. وهناك تربص له أخوها « باريس » فرماه بسهم أصابه فى عقب قدمه غير المعصوم .. فأرداه قتيلا !

وخف من أصدقاء القتيل كل من « أوديسيوس » و « أجاكس » ، كي ينقذا جثة البطل الصريع من الوقوع فى أيدى أهل طروادة .. فحملها الأول ومضى بها عائدا إلى قومه .. بينما بقى الثانى لينقذ أيضا درع أشيل الفولاذى المشهور ، واشتبك من أجله فى مبارزة انتهت بإعلان هزيمته وأحقية الطرواديين فى الاستئثار بالدرع .. وهنا جن جنون « أجاكس » واستبد به اليأس والغيظ فقتل نفسه!.. وقد ألهمت نهايته المفجعة هذه أديب الإغريق الخالد (سوفوكل) بفكرة مأساة رائعة من مآسيه التمثيلية التى تعتبر من أعظم كنوز الأدب المسرحى القديم ، وأقوى دعائم المسرح العالمى فى جميع العصور !

نهـاية « باريس » .. !

أما « باريس » الشاب الماجن الذى جلب الكوارث على طروادة باختطافه لهيلين وإشعاله نار تلك الحرب الضروس .. فقد جاءت نهايته على صورة أخرى : فقد كان له شقيق يقرأ الغيب يدعى « هيليناس » ، أسره الإغريق وأرغموه على أن يقرأ لهم الغيب ، فأنبأهم بأن أخطر سلاح يكفل لهم النصر على طروادة هو قوس البطل (هرقل) وسهامه القاتلة . وكان هرقل قد ترك هذه السهام وهو يحتضر لصديق يدعى (فيلوكتيتس) .. فمضى أوديسيوس يبحث عن هذا الشخص حتى عثر عليه مصابا بلدغة ثعبان ، فجلب له « طبيبا » من السحرة شفاه من

إصابته .. ثم أخذه إلى حيث اشترك مع قومه فى حصار طروادة الأخير .. الذى انتهى بغزوها !

وأثناء ذلك الحصار أصيب باريس بسهم قاتل من سهام هرقل .. وفيما هو يحتضر تذكر أن حبيبته القديمة (أويتون) كانت حاذقة فى تضميد الجراح ، فتوسل إليها كى تعالج إصابته .. لكن الحورية ذكرت خيانته القديمة وهجره إياها ، فأبت أن تمد يدها لتشفيه !.. وإن كان الندم عاودها بعد موته فقفزت إلى قلب النار التى أشعلت لحرق جثته ، وتركت ألسنة اللهيب تلتهمها .. حتى اختلط رمادها برماده !

الحصان الخشبى .. ونهاية طروادة !

واستمر حصار الإغريق لطروادة عقيما ، لا ينتهى إلى نتيجة حاسمة .. حتى أوحت الإلهة (أتينا) لأحد قواد أجاممنون بفكرة عبقرية ، نفذها الإغريق على الفور .. فأحرقوا جميع خيامهم وحملوا متاعهم عائدين إلى سفنهم ، ثم أبحروا بها متظاهرين بالرحيل إلى بلادهم نهائيا .. تاركين خلفهم على الشاطئ المهجور حصانا خشبيا هائل الحجم ، أثار فضول أهل طروادة فتعاونوا على جره إلى داخل مدينتهم ، كى يقدموه غنيمة إلى آلهتهم !.. وفيما الجميع يلهون محتفلين برحيل أعدائهم وفك الحصار عن

مدينتهم ، فتح باب خفى فى بطن الحصان تدفق منه قواد الإغريق الذين كانوا مختبئين فى جوفه .. وهرعوا إلى أبواب المدينـة ففتحوهـا على مصاريعها لجنودهم الذين عادوا من سفنهم فى تلك الأثناء متلصصين .. فتدفقوا إلى داخلها كأمواج البحر الزاخر .. وأحرقوا أبراجها الشاهقة ، وقاتلوا أهلها بالسيف .. حتى أخضعوهم !

وهكذا سقطت طروادة ، ضحية أعظم وأقدم خدعة فى تـاريخ الحروب !

* * *

(٣)

الأوديسّة

(هوميروس)

١

على أثر انتهاء حرب « طروادة » بسقوطها فى يد الإغريق الظافرين ، عاد جنودهم جميعا إلى بلادهم وبيوتهم ، ما عدا البطل « أوديسيوس » ، الذى جلب على نفسه — ببعض تصرفاته — غضب إله البحر «بوزيدون» فأقسم ليحرمنه من العودة إلى أحضان زوجته الوفية «بنيلوبى» أو رؤية بيته الحبيب فى « إيثاكا » مرة أخرى !

ونفذ الإله الناقم قسمه ، فلبثت الزوجة المكلومة وابنها « تيليماخوس » ينتظران عودة عائلهما المحبوب عشر سنوات كاملة ، دون جدوى .. وبرغم ذلك فإنهما لم يفقدا يوما الأمل فى عودته فى النهاية !.. أما أهل المدينة جميعا فقد أيقنوا من موت « أوديسيوس » ، **فتقاطر الأمراء والنبلاء من شتى جزر اليونان المجاورة على بيته يطلبون يد زوجته الحسناء « بنيلوبى » . لكن المرأة الصابرة رفضت عروضهم جميعا ، وبقيت على وفائها ، وأملها !**

ورغم ذلك فقد أصر الطامعون فيها على ملاحقتها بتوسلاتهم ، ومغرياتهم .. بل إنهم استبقوا الحوادث فاعتبروا البيت بيتهم وأقاموا فيه إلى جانبها يمرحون ويصخبون ويقيمون الولائم والحفلات البهيجة ، أملا فى أن يثنوها بإلحاحهم عن عزمها فتلين قناتها وتقبل أحدهم

زوجا !.. وفى أثناء ذلك كانت كراهيتهم لابنها « تيليماخوس » وخدم أوديسيوس الأوفياء تزداد وتتفاقم يوما بعد يوم ، حتى اعتزموا أن يهلكوهم ليتخلصوا من مضايقاتهم !

وطيلة تلك السنوات ، كان البطل الغائب « أوديسيوس » سجينا فى جزيرة الحورية « كاليبسو » ، التى وقعت فى هواه فعرضت عليه أن تمنحه الخلود إذا بادلها الحب وأقام معها ، لكنه لم يبال بعروضها ومغرياتها .. وإنما ظل يقضي النهار كل يوم جالسا على شاطىء البحر ، يحدق فى أمواجه بنظرات زائغة ، ويذرف الدمع حنينا إلى بيته فى « إيثاكا » ، وزوجته الحبيبة بنيلوبى !

وبقى إله البحر « بوزيدون » على عدائه لأوديسيوس ، لكن بقية الآلهة — وعلى الأخص إلهة الفكر ذات العينين الغبراوين « أثينا » — أدركتهم الشفقة على البطل المغترب ، فانتهزوا فرصة تغيب إله البحر فى إيثيوبيا وأمروا الحورية بإطلاق سراح سجينها وتزويده بعائمة خشبية تحمله إلى « إيثاكا » .. لكن أوديسيوس خشى على نفسه فى البداية من الغرق ، ثم ما لبث أن قنع بهذه الفرصة للنجاة فأعد للعائمة شراعا وتزود ببعض المؤن ثم انطلق فى البحر ..

وانقضت عليه فى البحر أربعة أيام على خير حال .. ولكن فى اليوم الخامس عاد بوزيدون من « إيثيوبيا » ، فرآه على ظهر عائمته فى عرض البحر ، **فاحتدم غيظه وبادر فكاثف السحب وحرك الأمواج بصولجانه فأثار ثائرتها ، ثم أطلق الرياح والعواصف تعوى فى الجو.**

وتزأر بكل عنفوانها .. فتخاذلت ركبتا أوديسيوس فزعا وهتف ضارعا : « يالى من تعس ! ليتنى مت بحراب أهل طروادة و لم أعش لأعانى عذاب الأسر والوحدة وهذه الميتة الرهيبة فى الغربة ! » .

.. وفيما هو يحدث نفسه هكذا انقضت عليه موجة هائلة ، حطمت الشراع وألقت به فى اللجة المتلاطمة .. لكنه برغم كل شيء لم ينس أن يتشبث بما بقى من العائمة بكل قوته ، ولبث يصارع الموج ، ويتجنب الصخور ، ويغوص ويطفو ، حتى رأفت حورية البحر بحاله فألقته على الشاطئ فى آخر رمق .. وهناك انبجست من جوفه عن طريق فمه وأنفه كميات كبيرة من ماء البحر ، ثم استكان جسمه بلا حراك كالجثة الهامدة فترة طويلة .. حتى عاودته قواه تدريجيا فنهض وتسلق السفح إلى حيث وجد ظلة كثيفة رقد تحتها وغطى جسمه ببعض أوراق الشجر ..

وكانت لحاكم فى تلك الجزيرة ابنة تدعى «نوزيكا»، ظهرت لها الإلهة «أثينا» فى حلم وأوحت إليها بأن تنهض فى ذلك الصباح وتأخذ ثياب أبيها وإخوتها إلى شاطئ البحر كى تغسلها هناك ، فأمرت الأميرة وصيفاتها بأن يملأن من تلك الثياب عربة يجرها بغل ، كما زودتها أمها بسلة مليئة بكافة أنواع الطعام ، وزجاجة من النبيذ ، ثم قارورة من زيت الزيتون كى تدهن به هى ووصيفاتها أجسامهن بعد الاستحمام ..

فلما فرغن من غسل الثياب والاستحمام ، ثم تناولن طعامهن ، خلعن ثيابهن وبدأن يلعبن الكرة .. وإذ أوشكن على الانتهاء من اللعب حركت الإلهة « أثينا » ذراع الأميرة بحيث أخطأت الرماية فبدلا من أن

تصوب الكرة إلى إحدى وصيفاتها ألقت بها إلى البحر .. **فأطلقت الفتيات فى صوت واحد صرخة ثاقبة ، أيقظت « أوديسيوس » من نومه فنهض من حيث كان راقدا واتجه نحوهن وقد حجب عورته بغصن مورق .. فلم تكد العذارى يلمحنه عاريا وقد امتلأ جسمه بزبد الماء الملح حتى فررن منه جميعا متصايحات .. ما عدا الأميرة « نوزيكا » التى وقفت فى مكانها متصدية له دون وجل !**

وتحير الشاب برهة بين أن يلمس ركبتى الحسناء ويلقى إليها بطلبته ، كما يقضى العرف ، وبين أن يقف حيث هو ويناشدها من بعيد أن تقوده إلى المدينة وتوفر له المأوى باعتباره غريباً ضالاً ؟.. واختار الاحتمال الثانى ، خشية أن يغضبها فيما لو لمس ركبتيها .. فوقف فى مكانه وأفضى إليها برجائه ، فى عبارات عذبة ماكرة .. فما سمعت نوزيكا شكواه حتى رثت لحاله فأعطته من ثياب إخوتها وقادته إلى المدينة حيث قصر أبيها حاكم الجزيرة ، الذى استقبله مرحبا وأكرمه ثم طلب إليه أن يروى قصته .. فانطلق البطل يروى كل ما وقع له منذ سقوط طروادة .

* * *

٢

« أنا أوديسيوس ابن لايرتس ، الذى بلغت شهرتى عنان السماء .. وهذه قصة الكوارث التى صبها « زيوس » وآلهته على رأسى منذ غادرت طروادة فى طريقى إلى بلدى ..

« كانت الريح قد حملت سفينتى إلى أرض عشائر « سيكونس » ، فنهبت مدينتهم وذبحت الكثيرين منهم ، ثم قسمت زوجاتهم وخيراتهم بين رجالى . ولو رحلنا بعد ذلك مباشرة لما حدث شىء ولكن بعض أتباعى ذبحوا ماشية على الشاطىء وانتظروا ليقيموا منها مأدبة فى المساء ، فتجمع أهل الجزيرة فى تلك الأثناء وهاجمونا عدة هجمات أصبنا خلالها بخسائر فادحة ..

« ثم تقاذفتنا أمواج البحر الهائجة تسعة أيام ، وفى اليوم العاشر رسونا على شاطىء جزيرة « أكلة اللوتس » ، فأرسلت ثلاثة من رجالى سفراء إلى شعبها ، فاستقبلهم القوم مرحبين وأطعموهم من اللوتس الذى يأكلونه ، وهو فاكهة مذاقها كالشهد ، إذا أكلها إنسان أحب موطنها وأبى مغادرته إلى أى مكان آخر ! وهكذا اضطررت إلى تقييد وثاق رجالى الثلاثة وحملهم إلى السفينة قسرا ، ثم أقلعنا قبل أن يأكل غيرهم من اللوتس فيتمردوا ويأبوا العودة !

« ووصلنا إلى بلاد قوم يطلق عليهم « سيكلوبس » ، وهم مردة متوحشون لهم عين واحدة فى وسط جبينهم ، فأخذت اثنى عشر من رجالى وهبطنا إلى الشاطىء . وبعد مسيرة مسافة قصيرة صادفنا كهفا كبيرا مملوءا بأوانى اللبن والجبن الشهى فدخلنا وأكلنا فى انتظار قدوم سيد الجزيرة . وفى المساء عاد الرجل فإذا هو مخلوق ضخم مخيف أدخل ماشيته المسمنة إلى داخل المغارة ثم أغلق بابها بحجر هائل الحجم ، لا يقوى حشد من الرجال على زحزحته ! وبعدئذ حدجنا بركن عينه وسألنا عن مطلبنا ، فقلت له : « نحن يونانيون قادمون من طروادة جئنا نلتمس ضيافتك ، باسم زيوس كبير الآلهة وحامى الغرباء » .. فما كان من العملاق إلا أن أجابنا بصوته المخيف : « لقد أخطأتم إذ حسبتمونا نبالى بـ « زيوس » أو آلهته ، فنحن أبناء « بوزيدون » الذين نفوقهم حسبا ونسبا ! » ودون أن يضيف حرفا وضع يده على كتفى اثنين من رجالى فألقاهما بقوة على صخور المغارة بحيث تفتتت جمجمتيهما ، ثم .. قطعهما إربا إربا وأعد منهما عشاءه ! وحين انتهى من التهامهما ، لحما وعظما ونخاعا ، تمدد على الأرض وسط خرافه واستغرق فى النعاس !

« فكرت أن أستل سيفى الحاد وأجهز عليه .. لكنى تذكرت أننى لو فعلت لهلكنا جميعا ، فما كان فى وسعنا جميعا تحريك الحجر الذى يسد مدخل المغارة ! وهكذا لبثنا نبكى وننتحب فى انتظار شروق الفجر .. فلما لاح استيقظ العملاق فأشعل ناره وحلب ماشيته ثم استدار إلى اثنين آخرين من رجالى فأعد منهما وجبة إفطاره! وحين فرغ من التهامهما دحرج

الحجر وخرج يسوق أغنامه ثم أعاد سد باب المغارة بالحجر مرة أخرى ومضى إلى سبيله ، تاركا إياى أشحذ ذهنى بحثا عن مخرج من مأزقنا ..

« وأخيرا اهتديت إلى خطة : كانت فى المغارة هراوة ضخمة من خشب الزيتون الأخضر ، بحجم صارى مركب من ذوات العشرين مجذافا ، فقطعت منها جزءا طوله ستة أقدام وجعلت رجالى يسنون طرفها ويجففونها فى النار ، ثم أخفيتها تحت أكوام السماد التى تحتل ركنا من المغارة !.. فلما أقبل صاحبنا فى المساء مع أغنامه دحرج الحجر وتعشى أيضا باثنين آخرين منا .. وعندئذ قدمت له كأسا من النبيذ القوى الذى كان معنا ، فجرعها دفعة واحدة وقال وهو يلعق شفتيه بلسانه مستمرئا : « لكأن هذا رحيق الآلهة ! والآن هلا ذكرت لى اسمك كى أمنحك منحة الغرباء ؟ » .. فأجبته وأنا أقدم له كأسا أخرى : « إسمى (لا أحد) ، فلا تنس المنحة التى تحدثنى عنها !.

وعندئذ أجابنى بلهجة أفزعتنى : « (لا أحد) ، لسوف آكلك عندما أفرغ من التهام رجالك جميعا . هذه منحتى التى أقدمها للغرباء ! ».. ثم استدار على جنبه واستغرق فى نعاس من تأثير النبيذ .. بعد أن تقيأ بضع قطع من اللحم البشرى الذى التهمه !.. وللحال تهيأت لتنفيذ خطتى : ألقيت بالهراوة فى بقايا النار المشتعلة حتى احمرت كالجمرة ، ثم فقأت بها عينيه بكل قوتى ، وأنا أدير سنها المحمى فى محجريه .. حتى احترقت عيناه وأجفانه وأهدابه جميعا ، وهى تتلظى على آثار النار وتحدث صوتا شبيها بصوت الحديد المحمى حين يغمسه الحداد فى الماء

البارد !

« وأطلق العملاق صرخة رهيبة اهتزت لها جدران المغارة ، ففررنا من وجهه إلى ركن قصى ، بينما انتزع هو الهراوة من عينه وألقاها بعيدا وهو يصرخ مناديا قومه الذين يقطنون كهوفا مجاورة .. فتجمعوا على استغاثته أمام باب المغارة وصاحوا يسألونه عمن يهاجمه ، فأجابهم بأعلى صوته : « (لا أحد) يهاجمنى ، (لا أحد) يؤذينى ! » .. وعندئذ قالوا له : « ما دام لا أحد يؤذيك أو يهاجمك فلابد أن الإله بوزيدون أصابك بمرض ، وفى هذه الحالة لا نستطيع مساعدتك ! » .. ثم مضوا وتركوه !

« وعندئذ تحسس العملاق طريقه إلى باب المغارة فدحرج الحجر وجلس فى الباب مادا يديه ، لمنع أى واحد منا يحاول الفرار !.. لكننا تسللنا فى هدوء إلى الخراف فتعلق كل منا ببطن واحدة منها متشبثا بصوفها . وهكذا مررنا به فى خروجنا آمنين ، وهو يتحسس ظهور الخراف بيده ، ونحن متعلقون ببطونها !.. فلما صرنا خارج المغارة دفعنا الخراف أمامنا إلى السفينة وأبحرنا فى سلام . وحين ابتعدنا عن منطقة الخطر ناديت العملاق شامتاً معيراً ، فدفعه الغيظ إلى أن ينتزع قطعة ضخمة من التل ويقذفها فى الاتجاه الذى سمع منه صوتى ، فكاد بذلك يغرق سفينتنا .. لكنى مضيت أعيره وأشمت به ، فلم يجد وسيلة ينفث بها عن حنقه سوى أن يدعو إلهه « بوزيدون » كى ينتقم له .. فسمعه الإله ووعد بالاستجابة لدعائه .

« وبلغنا جزيرة (أيولاس)ـــ الإله المتحكم فى الريح ـــ فأعطانى حقيبة حبس فيها جميع الرياح المضادة لاتجاه سيرنا ، وربطنا بخيط فضى رفيع لا يحتمل أبسط ضغط . ثم أرسل رياحه الغربية لتدفعنى فى اتجاه موطنى .. فقضينا تسعة أيام فى أحسن حال . وفى اليوم العاشر لاحت لنا أرض الوطن الحبيب ، حتى لقد لمحنا قومنا يشعلون النار لإرشادنا إلى مدخل الميناء ، فغلبنى الفرح والتعب واستغرقت فى النعاس .. وفى أثناء نومى تناقش بحارتى فى أمر الحقيبة التى أعطانيها أيولاس . مرجحين أن تكون محتوياتها منحة ثمينة من الذهب والفضة ! ودفعهم الفضول إلى فتحها ، فإذا الرياح الحبيسة فيها تنطلق بأقصى قوتها فتعيدنا القهقرى مسافة بعيدة إلى عرض البحر !

« وبعد عدة أيام وصلنا إلى جزيرة الإلهة « سيرك » فأرسلت نصف رجالى لاستكشاف أمر الجزيرة .. فمضوا حتى بلغوا قصر « سيرك » ، التى استقبلتهم هاشة مرحبة ثم سقتهم نبيذا ممزوجا بمخدر خاص ينسيهم وطنهم وبيوتهم .. وفى النهاية سحرتهم بصولجانها فصاروا خنازير ، وإن احتفظوا بعقول البشر !.. فلما انقضى وقت طويل دون أن يعودوا إلينا أخذت سيفى ويممت شطر القصر . وفى الطريق ظهر لى « هرمس ذو الحذاء الذهبى » فأطلعنى على مصير رجالى وأعطانى عشبا خاصا يحمينى من سحر « سيرك » ثم أوصانى أن أرفع سيفى عليها إذا ما همت بإشهار صولجانها فى وجهى ، وعندئذ تسألنى الرحمة وتصير صديقتى !.. وقد حدث هذا كله بالفعل ، ورفعت « سيرك » سحرها عن رجالى فعادوا

سيرتهم الأولى .. وعشنا جميعاً مع الإلهة فى جزيرتها عاما كاملاً !

« فلما انقضى العام ناشدت (سيرك) أن تسمح لنا بالذهاب ، فقبلت ، ولكنها اشترطت أن نمضى أولا إلى مملكة (هيدس) كى نسأل العراف الأعمى « تيريسياس » عن مصيرنا وعن الطريق الذى نسلكه .. فوعدتها بتنفيذ رغبتها وأقلعنا . وحين وصلنا إلى غايتنا ألفيناها تقع عند أقصى حدود العالم ، حيث كل شىء يغلفه الضباب والغمام فحفرت خندقا وسكبت فيه دماء خراف التضحية ، فلم تكد أرواح الموتى تشم رائحة الدم حتى أقبلت تتجمع بالقرب منه .. وكانت بينها عرائس ، وشبان عزاب ، وشيوخ طاعنون فى السن ، وفتيات ناضرات .. لكننى شهرت سيفى فوق الخندق واشترطت على الأرواح ألا تقترب منه إلا إذا تحدثت أنا أولا إلى العراف « تيريسياس » ! .. ولمحت بين الأرواح روح أمى التى تركتها حية حين رحلت إلى طروادة فى بداية الحرب ، فبكيت لمرآها .. لكننى أصررت على عدم السماح لها بالاقتراب من الدم إلا بعد مقابلتى للعراف !

« وأخيراً جاءنى « تيريسياس » وفى يده صولجان ذهبى ، فشرب الدم القاتم الذى فى الخندق .. وبدأ يتنبأ : « أرى أمامك كوارث عديدة ، لكن فى استطاعتك أنت وجماعتك أن تصلوا إلى بيوتكم سالمين إذا حرصتم لدى وصولكم إلى جزيرة « تريناشيا » على عدم إيذاء قطعان ماشيتها التى من سلالة « هليوس » الذهبية ، أما إذا مسستموها بأى أذى فسوف يحيق الدمار بسفينتك ورجالك ، وحتى لو عدت أنت وحدك حيا

فستكون عودتك فى ظروف سيئة يخيم فيها على بيتك الحزن والأسى .
وسوف يصيبك الموت فى البحر ، ولو فى أرذل العمر .. إلخ » .

« وبعد أن فرغ العراف من نبوءته شاهدت كافة أنواع العذاب التى تصيب الأشرار فى الجحيم ، وكانت من البشاعة بحيث بادرت بالفرار من المكان عائدا إلى السفينة ، ثم أقلعنا تسوقنا ريح هادئة ..

« وكانت (سيرك) قد حذرتنا من عرائس البحر التى تنادى ضحاياها بصوت عذب يفيض إغراء ، كما حذرتنا من الاقتراب من حقل أزهار تلك العرائس .. فلما دنونا من جزيرتها صهرت شمعا وسددت آذان رجالى به كى لا يسمعوا النداء المغرى ، ثم أوصيتهم بأن يقيدونى إلى صارى ولا يحلوا وثاقى مهما ألححت ، حتى نجاوز الجزيرة الخطرة !..
وحدث بالفعل أننا لم نكد ندنو من هناك حتى نادتنى العرائس بصوت عذب ، متوسلات إلى أن أقضى معهن فترة من الوقت ، فانتابنى حنين دافق إلى إجابة ملتمسهن، وأشرت إلى رجالى كى يحلوا وثاقى.. لكنهم بدلا من ذلك أحضروا حبالا أخرى وشددوا بها من قيودى ، حتى جاوزنا منطقة الخطر !

« وبلغنا أخيرا جزيرة (تريناشيا) التى ترعاها قطعان (هليوس) ، فحذرت رجالى من نبوءة العراف ، ووعدونى بعدم المساس بتلك الماشية .. لكنهم أثناء إحدى فترات تغيبى عنهم أغراهم الجوع وتحريض شرير منهم فذبحوا بعضا من الأبقار وأكلوها !.. وإذ ذاك احتدم غضب (هليوس) العظيم وناشد (زيوس) كبير الآلهة أن يعاقب أولئك

المجترئين على ماشيته ، فوعده بما طلب .. وهكذا لم نكد نبحر حتى هبت عاصفة عاتية حطمت السفينة فأغرقتها بجميع من فيها ، سواى !.. ثم لفظتنى الأمواج على شاطىء جزيرة (كاليبسو) حيث عشت أسير ربتها ثمانى سنوات .. وأنتم تعلمون طبعا كل ما جرى لى هناك خلال تلك المدة ، فلماذا أكرره ؟ » .

* * *

٣

وإذ فرغ البطل « أوديسيوس » من سرد قصته على مسامع مضيفيه ــ حاكم الجزيرة ونبلائها ــ لاذوا جميعا بالصمت ، وقد أدركتهم الشفقة عليه .. ثم أمر له الحاكم بسفينة سريعة تحمله فورا إلى موطنه « إيثاكا » .. وهناك لم يكد يهبط إلى الشاطىء فيستلقى عليه ليستريح ، **حتى ظهرت له الإلهة « أثينا » ذات العينين الغبراوين وحدثته عن المحاولات التى يبذلها نبلاء ايثاكا لاستمالة زوجته « بنيلوبى » وخطب ودها ! ثم نصحته « أثينا » بأن يتنكر فى زى متسول طاعن فى السن ، كى يرى كل شيء بنفسه رؤية العين** .. فتفكر أوديسيوس كما أوصته ، ثم سلك طريقا وعرا مهجورا إلى كوخ راع للخنازير كان يحبه ، يدعى « يومايوس » ، وهناك كشف للراعى نقاب تنكره ، فأكرم هذا وفادته . وصادف فى تلك الأثناء أن دخل الكوخ ابن أوديسيوس ــ المدعو « تيليماخوس » ــ فلما تعرف على أبيه تعانق الاثنان عناقا حاراً وفاضت من أعينهما دموع الفرح .. ثم رسم الاثنان خطة إحباط مؤامرة النبلاء الطامعين فى الزوجة الوفية !

وكان هؤلاء يقيمون فى تلك الليلة إحدى ولائمهم الصاخبة فى بيت

أوديسيوس ، فمضى البطل المتنكر إلى هناك وجلس أمام الباب يتسول ويطلب طعاماً .. ثم انتهز فرصة فتسلل إلى داخل البيت ، مارا بكلبه المسن « أرجوس » الذى كان راقدا مريضا ، تعبث فى جسمه الحشرات .. فعرف الكلب سيده ، لكنه لم يقو على أن يهز له ذيله مرحباً !... أما السادة السامرون فلم يروا فى الرجل المسن غير شحاذ يستجديهم خبزاً ولحماً ، فتصدقوا جميعا عليه ، عدا واحداً كان أغناهم جميعا وأرفعهم شأناً — ويدعى أنطينوس — فقد انتهره ثم ضربه بمقعد ، فتقبل البطل الإهانة صاغرا وهو يتوعد النذل فى سره ويطوى قلبه على نية الانتقام منه !

وفى تلك الأثناء أوحت « أثينا » إلى بنيلوبى أن تضع حداً لانتظارها العقيم لزوجها المفقود ، فتخرج قوسه العظيم وجعبة من السهام إلى القاعة الكبرى وتعلن على ملأ من خاطبى ودها أن من يقوى منهم على شد القوس وإطلاقه تقبله زوجا لها وتمضى معه إلى داره !

فلما أعلنت بنيلوبى النبأ هلل له الجميع مرحبين ، لكنهم حين جربوا القوس لم يستطع واحد منهم أن يثنيه ، برغم استماتتهم فى المحاولة .. وعندئذ برز الشحاذ « أوديسيوس » من وسطهم وأمسك بالقوس ، فضج الحاضرون بالضحك والسخرية .. لكن ضجيجهم انقلب إلى صمت ذاهل حين رأوه يجذب القوس ويطلقه فى سهولة ويسر ! ثم ينفض عنه أسماله ويظهر لهم على حقيقته ، بكل بأسه وجبروته ، وقد خف ابنه تيليماخوس إلى جواره يتألق فى حلة برونزية براقة ..

وجذب البطل قوسه وأطلق سهمه الأول ، فأصاب غريمه

« أنطينوس » فى حلقه وهو يجرع كأسا من النبيذ .. فسقط يتخبط فى دمه ، وقلب المنضدة بقدميه وهو ينتفض انتفاضته الأخيرة كالمذبوح .. وساد الهرج والمرج ، وهب الباقون على أقدامهم فزعين ، وتلفتوا يبحثون عن الرماح والدروع التى كانت معلقة على الجدران .. لكن تيليماخوس الماكر كان قد سارع فأخفاها ! وإذ ذاك استل الأشرار سيوفهم ذات الحدين واختطفوا المناضد فاتخذوا منها دروعا ثم اندفعوا نحو أوديسيوس مستميتين .. لكنه مضى يصرعهم بسهامه واحدا بعد الآخر ، وابنه يعاونه برمحه الطويل ، وخدمه الأوفياء يشدون أزره بكل ما فى وسعهم من حيلة أو بأس ، ويذبحون من بقى من الأشرار بأى سلاح يجدونه فى متناولهم .. حتى سالت دماء هؤلاء أنهارا ولوثت صحاف الأطعمة الفاخرة التى أعدوها لمأدبتهم !

وحين لم يبق منهم على قيد الحياة أحد ، مضى البطل الظافر أوديسيوس إلى زوجته العفيفة ، الوفية ، الصابرة ، « بنيلوبى » فعانقها عناقا حاراً ، صب فيه أشواق .. عشرة أعوام !

* * *

(٤)

إميـــل

(جان جاك روسو)

قصة الكتاب .. ومؤلف الكتاب

« جان جاك روسو » هو أحد الأمثلة القليلة « الصارخة » على قوة العقل الإنسانى ، وقدرته على التأثير فى جيل كامل — بل أجيال — من البشرية !.. ولعل أعجب ما فى أمره أنه لم يتوقع قط أن يبلغ يوما ما بلغ من شهرة ، أو يؤتى ما أوتى من عبقرية .. بل إن الشهرة والعبقرية قد واتتاه ، من حيث لا يدرى !.. فحياة جان جاك روسو ، وإنتاجه الأدبى ، هما من أندر الأمثلة فى تاريخ الأدب العالمى ، للعبقرى الذى هبطت عليه العبقرية بغير أن يطلبها أو يسعى إليها .. بل وبرغم إرادته !

نشأة تافهة !

● فقد ولد روسو فى أسرة متوسطة الحال . وكان بطبعه خجولا ، ضعيف الإرادة ، تافه الشخصية ، حالما ، كسولا ، مترددا ، كثير النسيان ، يميل مع كل ريح ، ولا يعبأ بالغد .. أو يطمح إلى أكثر من معيشة متوسطة ، هادئة ، بليدة !.. وساعده على هذا « الخمول » ارتكانه إلى إيراد مالى عائلى لا بأس به ، جعله يركز آمال شبابه الباكر فى إرضاء ميوله الغريزية إلى المغامرات الغرامية والجنسية .. وبقى على هذا المنوال حتى سن السابعة والثلاثين ، لا يزعج حياته الخاملة شىء ..!

وفجأة ، ودون أى إنذار أو مقدمات ، « أصيب » الشاب الخامل بالعبقرية — كما يصاب الإنسان بصاعقة من الصواعق ! — فأضيء ذهنه بنور « سماوى » ، ووضعت الأقدار بين أنامله ذلك السلاح النارى : القلم !.. فوجد نفسه ملقى فى وسط الحلبة التي تصارع فيها قبله أعظم وأنبه أعلام الفكر الإنسانى ، على مشهد من العالم بأسره ، القديم والجديد !

● ومنذ الضربة الأولى ، تفوق روسو عليهم جميعا !.. وسمع — وهو يغالب الدهشة ، بل الخوف ! — صوته يدوى فى جنبات ذلك المسرح ، مسرح الفكر العالمى ، ويملأه بأصداء تضارع أقوى ما رددته منابر الخطباء القدامى !.. ولعل روسو من فرط دهشته قد أنكر صوته حين سمعه يهاجم أسمى القيم المتعارف عليها ، ويهز بنيان المجتمع الراسخ من أساسه !.. وإذا ذلك الحالم الشريد ، والعاطفى البوهيمى الواهن الجسم والنفس ، يجعل من نفسه مشرعا من أعظم مشرعى القوانين ..!

● لكن هذه القوى التى كانت كامنة فيه قد أرهقته ، حتى نـاء بثقلها ، وتاق إلى التخلص منها !.. كانت حاله أشبه بحال رجل اختارته الأقدار كى يؤدى « رسالة » ما ، فخلعت عليه موهبة خارقة ، هائلة ، لكنها مؤقتة ، جعلته « يتفوق على نفسه » ، اثنى عشر عاما .. اثنى عشر عاما من العبقرية المتأجحة !.. انطوى فى نهايتها على نفسه كما تنطوى القوقعة ، عائدا إلى حياة التأملات والأحلام ، التى طالما اشتاق إليها !

لكن ضخامة المجهود الذى أوحى إليه بأن يبذله ، والضجيج العاصف لكلماته النارية ، أصابه باضطراب فى « توازنه » ، وهذيان مفجع ، لم

يخفف من لوعته أثناءه غير جمال أناشيده التى كان يتغنى بها .. وتغنت بها من بعده الأجيال !

يحب وطنه .. ودينه !

● ولد روسو فى الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٧١٢ ، فى مدينة « جنيف » — وكانت شبه « دولة » مستقلة بذاتها — وقد عاش طيلة حياته فخورا بانتسابه إليها ، يدافع عنها فى كل مناسبة ، رغم الجحود الذى أظهرته نحوه والاضطهاد الذى أصابه منها .. كان دائم التحدث عن حبه المكين لها ، وحزنه على العيش بعيدا عنها — يوم اضطرته الظروف إلى ذلك !— ولم يكن تعلقه ببلده غريبا منه ، وهو الذى لم يفتأ أبوه يلقنه وهو بعد فى طفولته الباكرة : « جان جاك .. فلتحب وطنك . إنك « جنيفى » ، ولسوف تلقى يوما أناسا من أوطان أخرى ، لكنك لن تجد يوما شبيها لوطنك ! » .

ولم ينس الفتى هذه النصيحة قط ..

● وكما أحب روسو وطنه ، أحب دينه .. ففى الوقت الذى كان فيه يعيش فى باريس ، ويختلط بنبلاء البلاط وفلاسفة العصر الملحدين ، كان يحرص على قراءة (الإنجيل) كل مساء .. حتى لقد أعاد قراءته أكثر من ست مرات خلال فترة إصابته بالأرق . وكان يطلق على نفسه ، فى شىء من المغالاة : « الرجل الوحيد فى فرنسا ، المؤمن بالله ! » .. ولعل حبه لوطنه ، وحبه لدينه — وقد رضع كلاهما مع اللبن من ثدى مسقط رأسه

« جنيف » ـــ كانا أبرز ما ميزه عن جميع كتاب عصره الفرنسيين ، يوم استوطن باريس فى شبابه الباكر .. باريس التى طرد منها أسلافه بسبب اعتناقهم المذهب البروتستنتى !

يقرأ الروايات مع أبيه .. حتى الفجر !

● وقد كانت أمه « سوزان برنار » امرأة بارعة الجمال ، موفورة الذكاء ، ماتت أثناء ولادتها إياه .. وكان أبوه « إيزاك روسو » صانع ساعات ، يجمع خلقه بين المتناقضات : بين الرقة والعنف ، والذكاء والإهمال .. ويميل إلى حياة المغامرة والتشرد ، والقراءة والاطلاع .. فأورث ابنه ميوله هذه ، ولا سيما الميل الأخير منها .. فلما بلغ الصبى السابعة من عمره صار يشارك أباه قراءة الروايات والكتب ، حتى لقد كانا ينفقان فيها أحيانا الليل بأكمله !.. وكان أحب المؤلفين إلى الصبى ، المؤرخ اليونانى « بلوتارك » ، الذى وقع أحد كتبه فى يد روسو وهو فى السادسة ، فحفظه عن ظهر قلب .. ولازمه ، مع بقية مؤلفاته الأخرى ، من المهد إلى اللحد ..!

يفر من قسوة المجتمع .. إلى الطبيعة !

● وحين بلغ روسو العاشرة ، اشتبك أبوه فى نزاع مع السلطات الحاكمة اضطر على أثره إلى الفرار من المدينة ، دون أن يعبأ كثيرا بمصير ابنه !.. وهكذا ازدوج يتم الفتى : بات يتيم الأب والأم معا !.. وقد كفله

عقب ذلك بعض أقاربه ، لكنه لم يعد يجد ملاذا من قسوة الحياة إلا فى أحلامه .. وأغراه ضجره من دنياه بأن ينطوى على نفسه ، وينشد السلوى فى أحضان الطبيعة ــ الأم الرؤوم ــ فيخلق له خياله من كائناتها الخرساء مجتمعا خاصا به ، لا يشاركه فيه ، أو يضايقه ، إنسان ..!

.. وعلى هذه الصورة بلغ روسو سن العشرين وهو على درجة كبيرة من الجهل .. فكان كل من يمتحنه يقطع بأنه فتى « لا مستقبل له » !.. وأن خير وظيفة يصلح لها هى أن يكون قسيسا لقرية من القرى الصغيرة ، كما كان جده لأمه ..

المرأة التى غيرت مجرى حياته !

● لكن لقاء مع امرأة ، غير مجرى حياته تغييرا كليا !.. ففى سنة ١٧٢٨ التقى روسو فى جهة (أنيسى) بامرأة تدعى مدام دى فارين ، فأصيب منها بسهم نفذ إلى قلبه مباشرة !.. وبعد خمسين سنة من ذلك التاريخ سجلت الصفحات الأخيرة التى خطها قلمه صيحة فياضة بالحب المنطوى على العرفان بالجميل ، جميل « أمه » الطيبة ــ كما صار يدعو مدام دى فارين ــ فإن الصبى اليتيم المحروم من حنان الأم ، كان ينشد الأمومة فى كل شىء ، حتى فى الحب !.. وقد وجد هذه الأمومة فى شخص تلك المرأة الرؤوم ..

● لكن المرأة كانت ذات ضمير حى ، فبرغم ما توافر لها فى روسو من « شباب » ــ كان ينقصها ! ــ فإنها لم تشأ له أن يعيش فى كنفها

حياة خاملة ، محدودة الآفاق .. بل أرادته أن يبحث لنفسه عن مستقبل أفضل .. فرضخ الشاب لرجائها وانطلق شريدا يجوب البلاد ، على غير هدى !.. مضى من أنيسى ، إلى تورين ، ثم عبر الألب ، ويمم شطر ليون ، ومنها إلى لوزان ، فنيوشاتل .. ثم إلى باريس .. وهو ما يزال شريدا يحلم !.. ولا يكاد يستقر فى عمل حتى ينفض يده منه لينتقل إلى آخر ..!

.. لكنه عاد أخيرا بخفى حنين إلى « أماه » ، التى كانت قد انتقلت الآن إلى « شامبرى » .. ورغم خيبة أملها فيه فقد سرت المرأة بلقاء عشيقها الشاب ، وأخذته إلى بيتها .. ليعيش فى كنفها !



جان جاك روسو

* * *

حلم من أحلام الجنة !

● وكانت هي مثله : رقيقة القلب ، عارمة الحواس ، واسعة الخيال .. قليلة المبالاة حتى بمن يحبونها ، تنساهم بمجرد انصرافهم ! والواقع أنها لم تقدر قط مبلغ تعلق روسو بها .. بل إنها صارت خليلته ، بغير أن تحبه ! ــ مثلها فى ذلك مثل الأديبة « جورج صاند » ، التى قبلت أن تكون خليلة للموسيقى « شوبان » بدافع من الشعور بالواجب !

أما بالنسبة لروسو نفسه ، فإن الأعوام الثلاثة الممتعة التى عاشها مع « مدام دى فارين » ــ بين ١٧٣٨ و ١٧٤٠ ــ كانت أشبه « بحلم من أحلام الجنة » !.. وفى الوقت الذى تذوق خلاله فى رفقتها « السعادة الكاملة المصفاة » ، تابع مطالعاته الأدبية المنوعة ، دون أى نظام أو برنامج مرسوم .. وتأثر أكثر ما تأثر بأدب « فولتير » ــ الذى صار خصمه فى المستقبل ــ ولا سيما بكتابه « رسائل فلسفية » ، الذى يعترف روسو بأنه كان أول كتاب حفزه على الدراسة واستفزه إلى محاولة الكتابة !

على أن معلم روسو الأعظم فى الواقع لم يكن « الكتاب » .. بل « الطبيعة » !.. فلقد أحبها منذ طفولته حبا ملك عليه حواسه ، بحيث جعله فى شيخوخته ينحو منحى كبار فلاسفة الشرق المتصوفين !

نهاية الحلم !

● لكن ذلك الحلم من أحلام الجنة الذى عاشه روسو فى أحضان مدام دى فارين ، انتهى فجأة ــ كما بدأ فجأة ــ حين تغيب صاحبنا فترة عن « عشهما » السعيد .. فلما عاد ، وجد مكانه فيه قد شغله .. طير آخر !

وأثرت هذه الخديعة الموجعة فى نفسية روسو .. فارتحل مبتئسا ، يبحث عن عمل يرتزق منه .. وتقلب فى أكثر من عمل : بين سكرتير لكاهن يونانى ، ونقاش ، وموسيقى ، وتاجر متجول .. إلخ ــ وخلال ذلك كله ظل دائما نفس الفنان الحالم الذى يستجيب لسحر الطبيعة ومباهجها العطرية ، فيتأمل صفحة السماء فى جذل ، وينظر إلى خضرة الحقول فى نشوة ، ويصغى إلى خرير الماء فى الجدول مأخوذا ..!

● ولكن لم تمض عليه شهور على هذا المنوال ، حتى ضاق بحياته تلك .. فشد رحاله عام ١٧٤١ إلى العاصمة : باريس !

فما الذى أغراه بأن يهجر أشجاره وأطياره وأنهاره ؟

أغراه المجد !.. المجد الذى قرأ عنه فى « بلوتارك » وحلم به ، فمضى يسعى إليه عن طريق : الموسيقى !.. ذلك أن روسو كان حتى ذلك الحين يعتبر نفسه موسيقيا أكثر منه أديبا .. وكان قد وضع ألحان أوبرا كاملة ، وابتدع طريقة جديدة لكتابة النوتة الموسيقية ، فخف إلى باريس ليشق طريقه الجديد فيها ..

الشريد الذى أعجبت به النساء !

● وفى باريس لم يحوجه الأمر إلى أكثر من بضع خطابات توصية فتحت له على أثرها أبواب صالون « مدام دوبان » الأدبى ، الذى كان قبلة أهل الفن والأدب فى ذلك الحين ، فدخل روسو فى زمرتهم .. وصار صديقا للأديب الكبير « ديدرو » .. وأعجبت نساء ذلك الصالون « بالمتشرد » الجديد ، المحروم من المؤهلات ، فسعين حتى ألحقنه بمنصب « سكرتير السفارة الفرنسية » فى (البندقية) — فى مايو سنة ١٧٤٣ — لكنه لم يلبث أن تشاجر مع السفير فترك منصبه فى العام التالى وعاد إلى باريس .. ليستأنف كفاحه من جديد !.. وفى هذه المرة واتاه شىء من التوفيق ، فأخرجت له على المسرح بعض تمثيليات موسيقية وروايات قصيرة ، مقتبسة عن فولتير ...

ضربة الحظ !

● وبعد خمسة أعوام أخرى ، لم يحرز فيها تقدما أو نجاحا يذكر ، انقضت عليه فجأة — ذات يوم — « الصاعقة » التى أشرت إليها فى بداية هذا الفصل (وقد عاش طيلة حياته لا يذكرها أو يتحدث عنها إلا وتعتريه رجفة الانفعال) : مضى ذات يوم ليزور صديقه الأديب « ديدرو » ،

وكان سجينا فى سجن (فنسين) بسبب مخالفته لقانون النشر .. وكان الطريق طويلا ، والحر شديدا ، فاستعان روسو على قطع المسافة بتقليب صفحات مجلة أدبية كانت فى يده .. وإذا بصره يقع على إعلان من أكاديمية (ديجون) تعد فيه بمنح جائزة مالية لمن يكتب أحسن رسالة فى الموضوع الآتى : « هل ساهم تقدم العلوم والفنون فى إفساد الأخلاق أم فى إصلاحها ؟ » ..

● وعندئذ: «أحسست فجأة كأن ألف شعاع وشعاع من النور قد غمرت ذهنى !.. فتزاحمت فيه الأفكار الحية النابضة ، بحيث كدت أختنق ، فجلست أستريح تحت شجرة .. وحين تنبهت من هذيان أفكارى المحمومة بعد نحو نصف ساعة ، كان صدر سترتى كله مبللا بالدموع !.. فى تلك اللحظات عشت فى عالم آخر ، وصرت إنسانا آخر ! » .

.. وكتب روسو رسالته المشهورة ، التى هاجم فيها الحضارة ونادى بالعودة إلى أحضان الطبيعة ، وبنظريته الجديدة التى مؤداها أن مبادىء الفضيلة محفورة فى كل قلب ، بحيث يكفى أن ينظر الإنسان إلى أعماق نفسه ويصغى إلى صوت ضميره ، فى فترة سكون الرغبات والعواطف ، كى يراها بوضوح !

● وظفر روسو بالجائزة ، وأحدثت الرسالة ضجة كبيرة فى الأوساط الأدبية !.. وأما وقد انطلق القلم الموهوب من عقاله ، فقد عز عليه أن يتوقف .. فمضى روسو يسود الصفحات بكتاباته . كتب رسالة أخرى عن « أساس التفرقة بين البشر » .. ثم ثالثة ورابعة ، فى

موضوعات مشابهة ..

وفى سنة ١٧٥٢ مثلت روايته « عراف القرية » أمام الملك ، فظفرت بنجاح هائل .. ووقف المؤلف يتلقى التهانى وقد أطلق لحيته وبدا فى هيئة الرجل المتوحش ، فأثارت غرابة شخصيته فضول الناس ، حتى اشتاقت « فرساى » بأسرها إلى التعرف عليه !

حرب على النفاق

● لكن المجتمع الذى خف إلى الترحيب بروسو فجأة ، بهذه السهولة العجيبة ، لم يظفر منه بإعجابه .. فراح ينقده فى كتاباته بصراحة وجرأة ، ويسلق بلسانه الحاد ما يسود صالوناته من رياء وزيف ، وسفسطة ومباذل !.. وكان أفراد تلك المجتمعات — وخاصة النساء منهم — يشعرون بنقائصهم ، فأحسوا بلذة مريرة فى مطالعة وسماع النقد الموجه إليهم .. وكانوا على استعداد لأن يجعلوا من أى شخص يواجههم بالحقائق الموجعة .. بطلا عظيما !.. وقد ظهر روسو فى الوقت المناسب ، فاتخذوه بطلهم المفضل ، وصار إعجابهم بـه « موضة » العصر !.. لكن « الموضات » والبدع لا تطول عادة أو تدوم على حال .. وهكذا سرعان ما سئم الباريسيون روسو بنفس السرعة التى هللوا بها له وكبروا ..

وكانت النتيجة الأولى لكفران باريس بروسو أنه كره العاصمة وأهلها وعاوده الحنين إلى الارتماء بين أحضان الطبيعة فى الريف !.. حيث الحرية

الكاملة التى لا يفسدها قيد من قيود المجتمع ، ولا يقاس إليها كل ما فى حياة المدن من مجد ، وثراء ، وشهرة !.. « إن أتفه واجبات الحياة الاجتماعية تفزعنى وتعذبنى : ولو كانت مجرد كلمة تقال ، أو خطاب يكتب ، أو زيارة تؤدى ، أو واجب يقضى ! » .

« الصومعة » تضم الخليلة والصديقة !

● وتهيأت له أسباب الفرار إلى الريف ، والطبيعة ، حين عرضت عليه امرأة تدعى « مدام ديبيناى » — فى سنة ١٧٥٦ — أن يعيش فى بيتها الريفى المسمى « الصومعة » ، الكائن وسط غابات (مونتمورينسى) .. فقبل العرض مرحبا ، وحل بالصومعة ذات يوم ومعه خليلته « تيريز لوفاسور » ، وكانت تعمل ساقية فى حانة حين تعرف بها — قبل عامين — فأعجبته بساطتها وأنوثتها ورقتها ، فاتخذها رفيقة لجسده وقلبه ، دون عقله .. (وقد رزق منها فيما بعد بعدة أطفال ، كان يودعهم دور الحضانة ، واحدا بعد الآخر ، الأمر الذى أثار ندمه وتوبيخ ضميره فى أواخر حياته .. !

فلما سافر روسو إلى « صومعة » مدام ديبيناى فى الريف ، أخذ خليلته معه .. وهناك ثمل بخمرة الهواء الطلق الجميل ، وخضرة الحقول ، وتغريد البلبل والكروان ، فبدأ يحلم .. ونبتت فى ذهنه البذور الأولى لقصته المشهورة « جوليا » أو « هيلويز الجديدة » !

● وحين فرغ من كتابة القصة قرأها على خليلته « تيريز » ، وأمها

مدام لوفاسور ، فبكت المرأتان تأثرا وإعجابا .. فقد جاءت القصة تحفة من تحف الأدب العذرى العفيف .. لكن روسو « أصيب » على أثر ذلك بحب جديد أوقعه فى مأزق نفسانى حرج ، فقد أشعل فى كيانه نار الرغبة المضطرمة التى تناقض كل ما نادى به فى قصته تلك من طهر وعفة !..

فإن المرأة التى أحبها — وتدعى « مدام دوديتو » — كانت متزوجة ، وكانت فى الوقت ذاته من قريبات مضيفته مدام ديبيناى — صاحبة (الصومعة) — فقاسى روسو الأمرين من عاطفته الجارفة .. اقرأ وصفه لإحدى خلواته مع تلك المرأة : « وذات ليلة خرجنا للنزهة بعد أن تناولنا العشاء معا ، فى ضوء القمر ، فخلبنا جمال الكون .. ولم أملك نفسى فارتميت عند قدمى محبوبتى ، وأغرقت ركبتها بدموعى ، وأسلت دموعها هى ، برغمها .. فذكرتنى بزوجها .. وإذ ذاك تنهدت ولذت بالصمت .. واكتفيت بأن قبلتها ! وأى قبلات ؟ كانت قد انقضت عليها ستة أشهر وهى بعيدة عن زوجها .. وانقضت علينا ثلاثة أشهر كنت فيها أراها كل يوم : أنا وهى وحدنا ، والحب ثالثنا !.. وفى تلك الليلة جلسنا فى الغابة منفردين ، لا رقيب علينا سوى ضياء القمر .. وبعد خلوة استمرت ساعتين ، وكانت من أرق الخلوات وأكثرها إرهافا للحس .. خرجت هى فى ظلام الليل من الغابة — ومن ذراعى ! — سليمة ، طاهرة الجسم والقلب ، كما جاءت !.. أواه أيها القارئ .. زن جميع هذه الاعتبارات واحكم .. فلن أضيف أنا إليها حرفا ! » .

شيطان الغيرة

● وبرغم سيطرة الطرفين على عواطفهما على هذا النحو فقد دب فى قلب صاحبة الصومعة دبيب الغيرة من قريبتها مدام دوديتو !.. وذات يوم ، تلقت « تيريز » ـــ خليلة روسو ـــ خطابا يفضح صلة خليلها بتلك المرأة ، فصبت عليه جام غضبها وثارت فى وجهه ثورة عنيفة .. فما كان من روسو إلا أن اتهم مضيفته الغيورة بإرسال الخطاب ، وأغلظ لها فى القول .. ومنذ ذلك اليوم تعذر عليه أن يبقى فى الصومعة التى تملكها !.. فانتقل إلى مسكن آخر فى نفس الضاحية .. لكن أصدقاءه والمعجبين به من النبلاء وكبار رجال البلاط ورجال المال بدأوا يتهافتون على دعوته إلى ضيافتهم ، وكان فى مقدمتهم دوق ودوقة لوكسمبرج ، الأمر الذى أثار حسد زملائه من رجال الأدب وحقدهم عليه ..!

وتقدرون فتضحك الأقدار

● وخلال الأربع أو الخمس السنوات التى قضاها روسو تحت جناح أولئك الكبراء ، كتب أعظم مؤلفاته : « العقد الاجتماعى » و « إميل » ـــ الذى أقدم لك مقتطفات منه فى الصفحات التالية ـ وكان روسو قد رسم خطته على أساس أن يكون الكتابان خاتمة إنتاجه

الأدبى ، مقدرا أنهما سوف يدران عليه نحو ثمانية أو عشرة آلاف من الفرنكات ، يستطيع أن يحصل بها على « بوليصة » معاش دسم لـه ولخليلته « تيريز » مدى الحياة .. وعندئذ يذهب ليعيش فى الريف ، بين أحضان أمه الرؤوم « الطبيعة » ، ويكتب فى أوقات فراغه الطويلـة ذكريات حياته ..

● لكنه وهو يرسم هذاالبرنامج كان يجهل ما يخبئه له القــدر !.. لم يكن يحس أو يرى العاصفة المخيفة التى تتجمع فوق رأسه ، كى تقتلعه من مأواه فى غابة (مونتمورنسى) اقتلاعا ، وتطارده حتى نهاية حياته !

كان روسو قد ألب على نفسه ــ بكتاباته ــ أعداء كثيرين : « مدام لابومبادور » صديقة الملك .. ورئيس الوزراء « شوازيل » .. ومدام دى ديفان ، ومدموازيل دى ليبيناس ، صاحبتى النفوذ الكبير .. ثم فلاسفة العصر الحاسدين الموتورين ، الذين رأوا فيه مارقا من مجتمعهم المنحل ، وكان على رأسهم « فولتير » !.. وغير هؤلاء من رجال الدين والقانون والبرلمان ، الذين توجسوا شرا من آراء هذا « الأجنبى الخطر » !

● وكانت « التكئة » التى استند إليها هؤلاء لمهاجمة روسو كتاب أصدره بعنوان « حرفة الإيمان » ــ وقد جعل منه الجزء الرابع مـن دستوره التربوى (إميل) ــ فلم يكد الكتاب ينشر حتى أقام ضد روسو قيامة خصومه جميعا ، سواء من فريق المتعصبين للديـن ، أو فريـق الملحدين !.. فبعد أن كان الفريقان يهاجمان أحدهما الآخر فى كل مناسبة « كالذئاب المسعورة ! » تحالفا معا ضده وتحولا إلى مهاجمة كتابـه الجديد ، الذى يدعو إلى التسامح والبر والإخاء !

و لم يدرك روسو الخطر المحدق به ، فى الوقت المناسب .. كان ما يزال منتشيا بالمتعة التى استغرقته وهو يكتب (إميل) ، فى قصره الصغير الساحر الذى استضافه فيه دوق لوكسمبرج ، تحيط به جداول الماء المنسابة كثعابين من الفضة ، وسط الطبيعة الساكنة ، وتؤنس وحدته خليلته « تيريز » .. وقطته .. وكلبه !.. وهكذا لم يبلغ أذنيه الضجيج المدوى الذى تتجاوب به الآفاق خارج حدود غابة (مونتمورنسى) ..

جنون الاضطهاد !

● فلما أحس بذلك الضجيج أخيرا سقط فجأة من عليائه وفقد اتزانه العقلى .. فراح يتوهم الخطر فى كل اتجاه — حيث لا خطر على الإطلاق ! — وينسب لهذه الجهة وتلك أنها تتربص له وتلاحقه بالاضطهاد !.. وأصيب على الأثر بأول نوبة خطيرة من نوبات « جنون الشعور بالاضطهاد » الذى لازمه بعد ذلك حتى نهاية حياته !.. واقترنت إصابته النفسية أو العصبية هذه بإصابة أخرى عضوية ، بنوبة عنيفة من مرض الكلى .. الذى دفعته آلامه إلى التفكير أكثر من مرة فى الانتحار !

● وفى غمرة هذه المحنة « الصحية » وقع عليه قرار برلمان باريس وقع الصاعقة : فقبل انقضاء عشرين يوما على نشر كتاب (إميل) فى هولندا ، وقبل أن تتسع الفرصة لتوزيعه فى فرنسا ، استصدر أعداء روسو

من البرلمان قرارا بحرق نسخ الكتاب جميعا ، وبإلقاء القبض على مؤلفه !..
فلم يمض يومان حتى نفذ القرار — فى ١١ يونيو سنة ١٧٦٢ — فاحتفل
بإحراق نسخ الكتاب علنا عند قاعدة سلم (قصر العدالة) .. ونادى
البعض بوجوب إحراق مؤلفه أيضا !

وخشى حماة روسو من النبلاء أن يزج بأسمائهم ، فيما لو قبض عليه ،
فناشدوه أن يلوذ بالفرار .. ونفذ الفكرة — آسفا — فى نفس اليوم !..
فلما وصل إلى الحدود السويسرية آمنا ، انحنى فقبل « أرض الحرية » فى
انفعال وتأثر شديدين !

عواصم أوربا تتسابق إلى حرق الكتاب !

● لكن حسن ظنه فى « الحرية السويسرية » لم يلبث أن خاب
بدوره .. فقد لاحقه خصومه بحملاتهم ، فلم تمض تسعة أيام على إحراق
(إميل) فى باريس حتى أحرقته جنيف !.. ثم تبعتها « برن » ،
فنيوشاتل !.. وتجاوبت أوربا بأسرها بصيحة واحدة من صيحات
السخط واللعنة ، لم تشهد لها من قبل مثيلا ! رمته بتهم بشعة منوعة : بأنه
خائن ، وملحد ، ومخبول ، ووحش كاسر ، وذئب مفترس .. إلخ .. حتى
اعتقد المسكين أن العالم كله قد أصيب بمس من الجنون !

● وازدادت على روسو وطأة الشعور بالاضطهاد .. تراءى له أن
الدنيا بأسرها قد تحالفت ضده ، وصور له وهمه خيوط مؤامرة « دولية »
دبرتها قوة مجهولة لتعذيبه والنيل منه !.. فلجأ إلى حمى ملك بروسيا ،

فردريك الثانى ، حيث أقام فى إحدى ضواحى نيوشاتل مدة عامين ونصف .. فلما بدا أن أعداءه قد نسوه ، جدد المعركة معهم بإصدار كتاب « رسائل من الجبل » — فى يونيو سنة ١٧٦٤ — وقد حارب فيه عدويه الرئيسيين : الكنيسة الكاثوليكية ، ودولة جنيف !.. لكن ذلك ألب عليه رجال الدين جميعا ، فحرم من ممارسة فرائضه الدينية ، ثم ثار عليه الناس من جميع الطبقات .. صارت الأحجار تلقى عليه كلما خرج إلى الحقول .. بل هدد بإطلاق النار عليه !

● وفى سبتمبر سنة ١٧٦٥ هاجم بعضهم منزله تحت جنح الظلام ، فاضطر إلى الفرار دون إبطاء .. إلى جزيرة (سانت بيير) ، حيث أقام شهرا واحدا ، طالبته حكومة (برن) فى نهايته بالرحيل .. فاضطر إلى الفرار مرة أخرى من سويسرا .. إلى باريس ، التى لم يكن مسموحا له بالإقامة فيها ، ومنها عبر البحر إلى إنجلترا ، بدعوة من المؤرخ الإنجليزى دافيد هيوم ..

● لكن برود الأخير الساخر ، واتصالاته بأعداء روسو من كبار الفرنسيين والإنجليز ، أثارت شكوك الأديب المضطهد فى نواياه .. وفى نوبة من نوبات ذعره فر المسكين من إنجلترا — فى مايو سنة ١٧٦٧ — مارا بفرنسا مرورا عابرا ، ومنها راح يتنقل على غير هدى من مكان إلى مكان ، كوحش يطارده قناصوه !.. وفكر فى الفرار إلى أمريكا ، أو إلى جزيرة قبرص ، أو أى ركن منزو من أركان بلاد اليونان .. وطيلة تلك الفترة التعسة بلغ به جنون الاضطهاد أقصى حدته ، فكان يختم كل خطاب يكتبه إلى أى إنسان بهذه الصرخة الملتاعة : « إنى برىء ! »

● وأخيرا سمح له بالعودة إلى باريس ، فأقام فى مسكن متـواضع بشارع (بلاتريير) ، وصار يكسب عيشه من نسخ النوتات الموسيقية للملحنين بالأجر .. وكان قد كتب « اعترافاته » ، وقرأ بعض صفحاتها المتطرفة على نفر من أصدقائه ، فوشوا به لدى السلطات كى تمنعه من مواصلة قراءاته العلنية ، خشية أن يلحق بهم ظل من المسؤولية ، بسبب الاستماع إليه ! وكان فى مقدمة الواشين مضيفته القديمة مدام ديبيناى ، صاحبة الصومعة !.. فبات يعتقد أن العالم بأسره يتجسس عليه ويتآمر ضده .. وأنه وحيد وسط مجتمع كله أعداء .. « وحيد فى باريس الزاخرة ، وحدة أقسى وأمر من وحدة روبنسن كروزو فى جزيرته المهجورة ! » ..

على عتبة الجنون ..!

● وفى نوبة يأسه من أن يستمع إلى صرخاته الملتاعـة إنسان ، استدار ينشد معونة الله ، فكتب شكوى متهوسة مرفوعة « إليه » ، وقرر أن يسلمها إليه « مباشرة » بوضعها فوق مذبح كنيسة (نوتردام) !.. لكنه وجد باب المذبح مغلقا ، على خلاف العادة .. فكانت الصدمة القاضية !.. خيل إليه أن الله ذاته قد أشاح بدوره عنه !

● ومنذ ذلك التاريخ لم يرتد إلى روسو عقله الكامل .. وقد بدا اختلاله واضحا فى آخر إنتاج أدبى له : « أحلام متنزه وحيد » — وقد بدأه فى خريف سنة ١٧٧٦ و لم يتمه حتى مات — لكن جنونه كان جنونا

هادئا ، رقيقا ، حزينا ، لا يتعدى نطاق مخيلته .. جنونا كان يشعر منه كأنه فى كابوس ، يود لو أفاق منه ..!

ورغم ذلك فإن فنه لم يفقد شيئا من مميزاته ، بل لعله ازداد نقاء !.. حتى كتابه ذاك الأخير جاء أشبه بأنشودة جميلة لكروان وحيد فى سكون الغابة !.. أنشودة اجتر فيها ذكريات أيامه السعيدة المعدودة التى عاشها فى أحضان الطبيعة : يتملى من جمال الحقول ، والماء ، والغابات ، والوحدة .. وفوق كل شيء : السكون ، والراحة !

وفى الشهر الأخير من حياته ، كان من حسن حظه أن قيض الله له رجلا ثريا نقله من مسكنه المتواضع ، يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٧٨ ، إلى ضاحية جميلة على بعد تسعة أميال من باريس .. وهناك استمتع روسو استمتاعا كاملا بذلك الفردوس المسترد .. حتى لقد تحسنت صحته ، وفى نهاية يونيو سمعه زائر إنجليزى يعزف على البيانو لحنا من ألحان أوبرا عطيل ..!

وفجأة .. فى صباح الخميس ٢ يوليو سنة ١٧٧٨ أصيب بنزيف فى المخ .. قضى عليه فى سن ٦٦ سنة !

يمجدونه .. بعد موته !

● لكن التعس الذى مات وهو يحس أنه منبوذ « وحيد على الأرض ! » ، لم يعلم أنه قد غزا الحاضر والمستقبل ، وكفل لاسمه الخلود الأبدى !.. ومنذ سنة ١٧٨٠ صار نصف فرنسا يحج إلى جزيرة « بوبلييه » حيث دفنت أشلاء راهب الفكر المجنون ، وكانت على رأس

الحجاج ملكة فرنسا وجميع أمرائها !.. وعبثا حاولت أحقاد حاسديه من الفلاسفة ، وهجماتهم العنيفة الخبيثة ، أن تدمر سمعته ، أو تؤثر فى حب الناس للمفكر الذى ظل وفيا لمبادئه حتى آخر نسمة ، فعاش معيشة رجل شعبى ريفى — على العكس من خصمه « فولتير » الذى كان قد مات قبله بنحو شهر واحد (فى ٣١ مايو سنة ١٧٧٨) .

وحين شبت الثورة الفرنسية مجد زعماؤها ذكراه فى كل مناسبة ، ونقلوا جثمانه إلى مقبرة العظماء « البانثيون » .. ثم وقف روبسبيير ذات يوم فخلع عليه تاجا من أوراق البلوط ، رمزا لمكانته السامية « كمعلم للجنس البشرى » .. وفى قاعة الجمعية التأسيسية وضع تمثال نصفى له فى مواجهة تمثالى زعيمى الحرية : واشنجتون وفرانكلن ..

فلاسفة العالم وأدباؤه .. تلاميذه !

● على أن تأثير روسو قد جاوز السياسة إلى الأدب والفلسفة ، فتتلمذ على إنتاجه فيهما أعظم فلاسفة ألمانيا وأدبائها ، ومنهم « كانت » و « هيجيل » و « جوته » و « شيللر » وغيرهم .. فقد أحدثت كتاباته ثورة فى مشاعر الناس ، وفى أسلوب التعبير عن تلك المشاعر !.. كان روسو عدة فنانين فى واحد : كان فى كتاباته « خطيبا » قويا من الطراز الأول ، فى بلاغة وتألق « ديموستين » !.. وكان فى الوقت ذاته أستاذا فى « التفكير بصوت مسموع » أو فن كتابة الخواطر والاعترافات التى تنفذ إلى أعماق النفس .. كان وهو يكتب إنما يتحدث عن نفسه دائما .. و لم

يكن يسأم قط مراقبة هذه النفس ، وتسجيل أحوالها فيما يكتب .. وبإفصاحه عن خفاياها وبواطنها على هذا النحو ، دون ما خجل أو تورع ، كشف وعرض على الناس ما كان آلاف منهم يحسونه ويكبتونه فى أعماقهم ، مضطرين !.. فهو قد حرر النفس العصرية من قيودها ، وعلمها كيف تحطم أغلالها .. كيف تعرف ما تحس به ، وتعبر عنه ...

وفى سبيل التعبير عن هذه الآفاق الجديدة ، خلق روسو لغة جديدة ، تراعى موسيقى الألفاظ قبل أن تراعى قواعد النحو الجامدة !.. كانت كتاباته أشبه بالشعر المنثور .. وقد تتلمذ عليه فى هذا الباب كل من « شاتوبريان » و « لامرتين » و « جورج صاند » وغيرهم ..

فضله على « فرويد » و « تولستوى »

● بل لقد كان روسو أحد الموحين لفرويد بنظرياته فى علم النفس والتحليل النفسى ، فإنه فتح للأدب أبواب العقل الباطن وأوضح تأثيراته ، التى كانت من قبل مجهولة أو مكبوتة ..!

ومن روسو استمد « تولستوى » فى شبابه شعلة إلهامه الأدبى ، حتى لقد كان يضع حول رقبته على الدوام أيقونة تحمل صورة روسو ، وكأنها صورة قديس !.. وحين نهض تولستوى بحركة الإصلاح الخلقى وافتتح من أجلها مدرسة فى مسقط رأسه ، جعل تعاليم جان جاك روسو ومثله التربوية التى رسمها فى كتابه (إميل) ، أساسا لبرنامج التعليم والتهذيب فى

المدرسة .. وقد عاش حتى آخر أيامه يشيد به ويمجده . والواقع أن التشابه الصارخ بينهما فى آرائهما ، سواء فى الفن أو الدين ، أمر يلفت النظر .
ويقول فيه تولستوى : « لشد ما تمس كتابات روسو قلبى .. حتى ليخيل إلىّ أنى أنا كاتبها ! » .. ولقد أعاد تولستوى كتابتها فعلا ، بأسلوب آخر ، فاستحق أن يلقب « جان جاك روسو القرن التاسع عشر » !

لكن تأثير روسو على الأدب والتربية والفكر الحديث لم يقتصر على بلاد الغرب ، بل جاوزها إلى بلاد الشرق الناهضة ، فقد طبقت « اليابان » و « الصين » الفتيتان تعاليمه فى مدارسهما ومؤسساتهما التربوية ..

كتابه هذا ..

● وقد وضع روسو كتاب « إميل » — الذى أقدم لك « مقتطفات » منه فى الصفحات التالية — سنة ١٧٦٢ ، تلبية لرجاء أم سألته أن يرشدها إلى الأسس التى ينبغى أن تتبعها فى تربية طفلها ، فأوحى إليه هذا الاقتراح بفكرة إخراج هذا الكتاب ، وقد تصور فيه نفسه مربيا خاصا لصبى خلقه خياله وأطلق عليه اسم « إميل » — مدفوعا بعاطفته الأبوية الموءودة نحو أبنائه الذين رزقهم ، ثم فقدهم جميعا ، منذ أودعهم دور الحضانة ! — وقد أورد فى الكتاب آراءه وخواطره بشأن طريقة تربية الصبى وإعداد مداركه لتعلم مبادئ الأخلاق وعلوم الطبيعة والميكانيكا وفلاحة الأرض .. وغيرها من

الخطوات التمهيدية لمختلف أبواب المعارف العامة .. فكان ذلك الكتاب الأساس الذى بنى عليه أساتذة التربية الحديثة العالميين : « بيزدو » و « بيستالوزى » و « فروبل » المبادىء المفصلة للتربية العصرية فى مراحل الدراسة الأولية والابتدائية .. التى هى فى الواقع أهم مراحل الدراسة عموما من حيث تأثيرها على عقلية الصبى ونفسيته طيلة حياته ..!

والآن ، تعال معى نقلب صفحات كتاب « إميل » :

فلنعتز بإنسانيتنا !

● لا يهمنى إن كان تلميذى قد أعد ليكون من رجال القانون أو الدين ، أو الجيش .. إلخ .. فقبل أن يختار له والداه مهنته اختارت له الطبيعة مهنته وحرفته الأولى : أن يكون إنسانا .. ومن ثم ينبغى أن يكون هدف التربية المثلى أن ينبغ كل فرد فى هذه « المهنة » ، مهنة الإنسانية .. التى يتساوى الناس جميعا فى نصيبهم من « بذرتها » الأولى ..

● فالعلم الأول الذى ألقنه لتلميذى هو .. الحياة ! والحياة ليست أنفاسا ، بل حركة ، وحسن استخدام لحواسنا .. وعقلنا .. ومواهبنا .. وكل جزء منا يساعدنا على إدراك وجودنا .. **فما تقاس الحياة بطول الأيام بقدر ما تقاس بحدة إحساس الحى بأنه حى ..!**

الإنسان عبد !

● والإنسان المتمدين يولد ويموت عبدا .. فهو فى طفولته عبد ثيابه الضيقة الخانقة .. وهو بعد وفاته سجين نعشه الضيق .. وطيلة حياته يكون رهين قيود مجتمعنا ونظمه الصارمة ..

● ولو تأملنا الطبيعة وتتبعنا طريقها المرسوم ، لوجدناها تشغل الطفل بألف شاغل وشاغل يستنفد نشاطه وطاقته .. وتزرع فى حياته جميع صنوف المتاعب ، فتعلمه معنى الألم والحزن ، وتعوده على المصاعب التى لن يلبث أن يواجهها فى حياته المستقبلة ..

● **« وشقاوة » الطفل مبعثها ضعفه ، والضعف أساس جميع الشرور .. فاعمل على تقوية طفلك يصبح طيبا خيرا !.. ونحن لو استطعنا أن نفعل كل شىء ، لما فعلنا قط شيئا رديئا !** .. وبين جميع سجايا « الخالق » ــ القادر على كل شىء ــ تعتبر « الطيبة » ألصقها به ، وأكثرها ثباتا وتأصلا فى الصورة التى نتخيلها عنه !

اللعب بالنار ..!

● وأنا لن أحاول منع تلميذى (إميل) من أن يؤذى نفسه ، أثناء لعب أو لهو .. بل إنى ــ على العكس ــ أحس بالضيق والحنق إذا لم يؤذ نفسه قط ، لأن ذلك يجعله يشب غريبا عن الألم ، والألم غريبا عنه ، لم يألف كلاهما صاحبه .. فى حين أن احتمال الألم والتمرس به هو الدرس

الأول والأنفع الذى ينبغى أن يتعلمه ..

فبدلا من أن تحتفظ بطفلك محبوسا فى حجرة خانقة ، خذه إلى الخلاء كل يوم .. دعه يجرى هنا وهناك ، ويسقط وينهض ، ويسقط مرة أخرى .. فكلما كثرت سقطاته اقترب اليوم الذى يتعلم فيه كيف ينهض من سقطته ، ثم كيف يتجنبها ..!



الضعف .. أمر نسبى

● ماذا نعنى حين نقول « إن الإنسان ضعيف » ؟.. إن لفظ « ضعيف » يتوقف فى معناه ودلالته على المخلوق الذى يوصف به .. **فالحشرة أو الدودة التى تفوق قوتها حاجاتها تعتبر « قوية » .. والفيل أو الأسد ، أو القائد الفاتح ، أو البطل ، أو حتى الإله الذى تفوق حاجته قوته .. ضعيف !**

والإنسان الحر حقا هو الذى يشتهى ما يستطيع أن يفعله ، ويفعل ما يشتهيه . هذا هو مبدئى الأساسى ، فلتطبقه على طفلك ، ويومئذ تجد أن جميع قواعد التربية تنبع منه .

علم طفلك أن لا يعتمد على أحد من البشر ، بل يعتمد على « الأشياء » فقط ، عند الضرورة .. دع رغباته تصطدم بالعقبات المادية أو الجسمية وحدها ، أو بالعقاب الذى يجازى به عن أفعاله الخاصة .. حتى إذا ما تكررت الظروف مرة أخرى ، ذكر الدرس الذى تلقاه فى أول مرة ..!

الوقاية .. أو العلاج !

● وليكن رائدك أن تحول بينه وبين ارتكاب الخطأ أو الشر ، لا أن تحرم عليه ارتكابه أو تنهاه عنه .. حتى تأخذ « التجربة » مكان « القانون » فى إقصائه عما لا ينبغى ..

● ويجب أن لا يحصل طفلك على ما يطلبه ، بل على ما يحتاج إليه .. وأن لا يتصرف قط بدافع الطاعة العمياء وإنما بدافع الضرورة ..

ولتستبعد من قاموسه كلمات « الطاعة » ، و « الأمر » ، و « الواجب » ، و « الالتزام » .. وبهذه الطريقة يشب صبورا ، هادئا ، محبا للنظام .. و « مطيعا » سهل القياد .. دون أن تطالبه بالطاعة كواجب كريه تفرضه عليه !.. وسوف تجده كذلك حتى حين لا يحصل

على كل ما يريد .. فإن من طبيعة الإنسان أن يذعن فى صبر لما تفرضه عليه طبائع الأشياء وليس لما تفرضه عليه إرادة سواه من البشر !

الخير هو المتأصل فى الإنسان .. لا الشر !

● ولتضع نصب عينيك قاعدة لا شك فيها ، هى أن النزعات الأولى التى توحى بها الطبيعة للإنسان ، هى الصواب دائما .. فليس فى القلب البشرى خطيئة متأصلة .. وإنما كل خطيئة أو شر من الشرور يمكن تتبع سببه أو منبعه الخارجى ..

● ومن هنا وجب أن تكون التربية التى تلقن للطفل فى السنوات الأولى من عمره سلبية محضة ، لا تنطوى على تعليمه الفضيلة أو الصدق ، بل تنطوى على حماية قلبه ونفسه من الرذيلة والشرور !.. أو بعبارة أخرى : لا تكلف نفسك مشقة زرع الخير فى نفسه ، فالخير متأصل فيه بطبعه وخلقته ، وإنما اقصر همك على وقاية نفسه الطاهرة من الشرور التى تأتيه من الخارج !

● والدرس الأخلاقى الوحيد الذى ينبغى أن يلقن للطفل تلقينا ، بل يلقن لكل إنسان ، فى كل مرحلة من مراحل العمر .. هو هذا : « لا تؤذ أحدا قط ! » .. فإن عمل الخير نفسه إذا لم يخضع لهذا الدرس ، يكون خيرا زائفا ، متناقضا ، بل خطرا ..

.. وهل هناك إنسان لا يفعل خيرا على الإطلاق ؟ كلا ، فكل إنسان يفعل بعض الخير : الشرير والطيب على السواء .. لكن هذا الخير الذى

مداركنا الأولية .. فليس ثمة كتاب أصدق من الطبيعة ، ولا دراسة أنفع من الحقائق !.. فلتعلم تلميذك أن يلاحظ بنفسه ظواهر الطبيعة ، فإذا رأى نباتا ينمو ، فلا تتعجل فى إرضاء فضوله إلى معرفة أسرار نموه .. لا تدعه يعرف شيئا لأنك ذكرته له ، بل لأنه قد تعلمه من تلقاء نفسه ..

فلو استبدلت سلطانك عليه بسلطان عقله فسوف يجىء اليوم الذى يكف فيه عقله عن التفكير ويصبح مجرد دمية أو ببغاء تتشدق بآراء الأخرين !.

لا تصلح له اخطاءه !

● وإذا اخطأ ابنك ، أو تلميذك ، فلا تصلح له أخطاءه ، بل دعه وشأنه وأمسك لسانك حتى يكتشفها هو بنفسه فيصلحها !.. أو فليكن أقصى ما تفعله له أن تنتهز أول فرصة تسنح فتهيئ له المناسبة التى تمكنه من اكتشاف أخطائه بنفسه .. فهو إذا لم يخطئ لن يتعلم ..!

ذلك هو المبدأ الرئيسى فى طريقتى : لا تتخم ذهن الصبى بأشياء ومعلومات كثيرة ، بل اكتف بالضرورى منها ، ولكن احذر من أن تدعه يكون آراء مشوشة مضطربة أو غير محدودة .. فأنا لا يضيرنى أن يجهل كل شىء عن موضوع بعينه ، فهذا خير من أن يخطئ فيه ، ولست أرمى من تزويده بالحقائق إلا إلى حمايته من الأخطاء التى قد يطمسها بها ..

التعلم الذاتى أجدى !

● وليس من شأنك أن تعلم الصبى العلوم المختلفة جميعا ، بل أن تزوده بطريقة تذوقها ووسائل دراستها حين تنضج مداركه .. فذلك مبدأ أساسى لكل تربية سليمة . ولا شك أن الأفكار والآراء التى يكتسبها المرء ويتعلمها بنفسه تكون أكثر رسوخا فى الذهن ووضوحا فى الفهم من تلك التى يلقنه إياها الآخرون .. فإن الإنسان بطبعه يجد متعة أعظم فى اكتشاف الأشياء بمجهوده الشخصى ، فضلا عن أن عقولنا تتمرد عادة على الخضوع الأعمى لسلطان الآراء التى تفرض عليها فرضا ..!

وإذن فمعلمونا الحقيقيون هم : التجارب ، والعواطف ، والانفعالات .. والإنسان لا يتعلم ما يناسبه شخصيا إلا فى ظل ظروفه الخاصة ..

● وفى اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل تلميذنا يهضم معنى كلمة « نافع » نكون قد توصلنا إلى وسيلة إضافية جديدة نسيطر بها عليه .. فإنه ينبغى أن يكون هذا السؤال : « ما فائدة هذا الشىء ، أو نفعه ؟ » هو الشعار المقدس الذى يمتحن به كل من التلميذ والمعلم كل تصرف من تصرفاته فى الحياة ..!

فليكن المربى قدوة لتلميذه ..!

● ويخطئ المربى الذى يعتمد فى تربية تلميذه على الألفاظ ، أكثر من اللازم ، فنحن نغالى فى الثرثرة ، وفى الإيضاحات اللفظية ، مع أن الصبية والشباب يقتدون بأفعالنا لا بأقوالنا ، فهم يحذون حذونا ويقتدون بنا ، لكنهم لا يلقون بالا إلى كلامنا أو يتذكرونه طويلا ..

● **وأنا أمقت الالتجاء إلى الكتب فى تعليم تلميذى .. فهى تعلمنا أن نتحدث عن أشياء لا نعرف شيئا عنها فى الواقع .. ولو سألتنى عن أحسن كتاب يعلم التلميذ الحياة على طبيعتها ، كما خلقها الله لنا ، لأجبتك أنه ليس كتابا من مؤلفات أرسطو ، أو أمثاله من الفلاسفة .. وإنما هو كتاب « روبنسن كروزو » ! ..** فهو يصور كيف يعيش الإنسان على الفطرة ، وحيدا فى جزيرة ليس فيها من المخلوقات غير الحيوان والنبات ، دون البشر !.. وهى ترينا كيف يغالب الإنسان عناصر الطبيعة ، ويروضها ، ويسخرها لخدمته ومنفعته .. الأمر الذى يفتح أمام الناشئ آفاق التفكير فى الصناعة والاختراع .. الخ .

● وينبغى أن يكون هدفك الرئيسى فى تربية تلميذك أن تبعد عن أفقه كل تفكير فى العلاقات الاجتماعية التى يعجز عن فهمها .. ولكن حين تضطرك الظروف ، وتطورات معلوماته ، إلى أن تشرح له كيفية اعتماد البشر على بعضهم البعض ، وتعاونهم فى شتى نواحى الحياة ،

فلا تركز همك فى أن تظهر له الناحية الخلقية أو المعنوية من نواحى ذلك التعاون ، بل يحسن أن تبدأ بتوجيه نظره أولا إلى فائدة التعاون من حيث تنمية الصناعات والفنون الميكانيكية التى تجعل الإنسان « نافعا » لإخوته فى الإنسانية ..!

نظرة الناس .. والقيم الحقيقية للأشياء !

● والملاحظ أن نظرة الناس المألوفة إلى الفنون المختلفة ، من حيث ترتيب أفضليتها وأهميتها ، تضع الفنون العقيمة فى رأس القائمة ، والفنون النافعة فى ذيلها ، وهكذا !.. **وأنت تخطئ إذا جعلت تلميذك ينشأ على اعتناق هذه النظريات السخيفة ، أو لو شاركته فى تطبيقها ، كأن يراك مثلا تظهر للجواهرى فى متجره الفاخر احتراما يفوق الاحترام الذى تظهره للحداد أو لصانع الأقفال فى حانوته المتواضع !.** » فإن النتيجة الطبيعية لذلك المسلك أن يشب الصبى وقد رسخت فى ذهنه فكرة خاطئة عن قيم الأشياء ، تجعله يحترم الأشياء الباهظة التكاليف ، التافهة القيمة ، ويضن باحترامه على الأشياء الزهيدة الثمن ، ولو كانت عظيمة النفع !.. وفى اللحظة التى ترسب فيها هذه النظرة فى وعى الناشئ تكون كل جهودك فى سبيل تربيته تربية قويمة سليمة ، قد ضاعت سدى !..

● **والخلاصة أنه كلما كان الفن نافعا وضروريا ، وجب أن يحترمه الإنسان ويقدره حق قدره .. وأنا أضع فى رأس قائمة الفنون النافعة ، ذلك الفن الذى هو أقدمها جميعا : فن الزراعة !.. ثم يليه فن التعدين**

والصناعات المعدنية .. ثم فن النجارة ، وهكذا .. وينبغى أن يلقن التلميذ أن ينظر إليها بنفس هذا الترتيب ، لا أن تفسد نظرته الأفكار السخيفة الخاطئة .. وفى هذا المجال يستطيع تلميذى « إميل » أن يتلقى الكثير من المعلومات النافعة من « روبنسن كروزو » ..

العاطل عن العمل .. لص !

● وليكن المبدأ الذى تضعه نصب عينى تلميذك ، أن « كل إنسان يجب أن يعيش » ولكن دون المساس بحقوق الآخرين .. **فلئن كان الشخص الذى يعيش فى عزلة ، خارج نطاق المجتمع ، يستطيع أن يفعل ما يحلو له ، ولا يكون مدينا لأى إنسان بأى شىء !.. فإن الذى يعيش فى المجتمع يكون ملزما بأن لا يعيش على حساب الآخرين ، أى أن يؤدى للمجتمع عملا يساوى قيمة الرعاية التى يلقاها منه .. فالإنسان فى المجتمع مكلف بأن يعمل .. وكل من يحجم عن العمل هو بمثابة لص ، يعيش عالة على المجتمع !**

● ولا بد من أن أعلم تلميذى « إميل » حرفة من الحرف .. وأنت قد تعلق على هذا بقولك : « لا بد أن تختار له حرفة شريفة ! » .. ولكن ، ماذا تعنى بربك بكلمة « شريفة » ؟.. أوَ ليست كل حرفة نافعة .. شريفة ؟ إنى لن أجعل منه مطرزا ، أو رجلا يحترف التوشية بالذهب ، أو تلميع الأشياء ـــ مثل تلميذ الفيلسوف (لوك) ـــ كما لن أجعله يصير موسيقيا ، أو ممثلا ، أو مؤلفا .. وإنما أنا أفضل أن يكون

إسكافا ، عن أن يكون شاعرا .. وأوثر له أن يصير كناسا للشوارع ، ولا يصير نقاشا يرسم الأزهار على الأوانى الخزفية !

وأنت قد تقاطعنى بقولك : « لكن حرف رجال البوليس والجواسيس ، والجلادين الموكلين بالمشانق .. كلها حرف نافعة .. فهل تريد لتلميذك أن يصير واحدا منهم ؟ » .

وأنا أجيبك بأن المجتمع السليم ينبغى أن لا يكون فيه لزوم لواحد من هؤلاء !

تثقيف القلب .. بعد العقل !

● والآن ، وقد جعلنا من « إميل » رجلا عاقلا ، ومفكرا .. فقد بقى علينا أن نجعل منه إنسانا محبا رقيق القلب ، يكمل مداركه بمشاعره .. ولكن قبل أن ننتقل إلى هذا الطور الجديد من أطوار تربيته ، لنلق نظرة على المرحلة السابقة التى تخطيناها ، كى نتبين أين نقف ، وإلى أين قد وصلنا :

إن إميل يعرف الآن القليل من المعارف ، لكن ما يعرفه قد تعلمه بنفسه ، فهو يخصه دون سواه .. وهو لا يطوى عقله على معلومات ناقصة ، فالأشياء القليلة التى يعرفها ، يعرفها حق المعرفة .. والمبدأ الهام الذى يجب أن يرسخ فى ذهنه فى هذا الصدد أن هناك أشياء كثيرة لا يعرفها اليوم ، لكنه قد يعرفها يوما ما .. وأشياء كثيرة غيرها يعرفها غيره من الناس ، لكنه هو لن يعرفها قط !.. وأخيرا هناك أشياء لا حصر لها لن يعرفها هو ولا غيره من الناس أبد الدهر !

يعيش فى الغابات .. وإنما حسبه أن يعيش فى خضم المجتمع الفاسد ولا يدع نفسه ينساق فى تيار نقائص المجتمع ورذائله !.. فليرقب كل شيء بعينه ، ويحس بقلبه ، على أن لا يكون لغير عقله سلطان عليه !

● وتلميذى المثالى لا يحب الضجيج أو الشجار ، سواء بين البشر أو بين الحيواثات .. وهذه النزعة « السامية » هى إحدى نتائج تربيته الممتازة ، التى لم تنبه فيه يوما أو تشجع غريزة حب الذات ، أو الغرور .. ومن ثم لم تشجعه على أن يجد لذته فى السيطرة على الآخرين ، والاستمتاع برؤيتهم يتألمون ويتعذبون ... بل إنه على العكس من ذلك ، يتألم حين يرى آلام الغير ، وهذا شعور « طبيعى » فيه ، كإنسان !

رقم الإيداع ٣١٨٤ / ١٩٩١
الترقيم الدولى 3 - 0650 - 11 - 977

حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

١ ــ رسالة الغفران :

١ ــ رسالة الغفران
٢ ــ الكوميديا الإلهية
٣ ــ جمهورية أفلاطون

٢ ــ الأمير :

١ ــ الأمير
٢ ــ يوتوبيا
٣ ــ المدينة الفاضلة
٤ ــ نظرية التطور
٥ ــ أصل الإنسان

٣ ــ العقد الاجتماعى

١ ــ العقد الاجتماعى
٢ ــ الإلياذة
٣ ــ الأوديسة
٤ ــ إميل

٤ ــ سالومى

١ ــ سالومى
٢ ــ المريض بالوهم
٣ ــ ترويض الزوج
٤ ــ سيرانو دى برجراك

٥ ــ جيوكندا

١ ــ جيوكندا
٢ ــ هرنانى
٣ ــ الحب الآثم
٤ ــ الجنس الآلى
٥ ــ سر سيدة القصر
٦ ــ الأم

٦ ــ مدرسة الأرامل

١ ــ جوديث
٢ ــ الهاربة من الفضيحة
٣ ــ رجل الأقدار
٤ ــ كاليجولا
٥ ــ مدرسة الأرامل

٧ ــ ألكسندر ديماس

١ ــ ألكسندر ديماس
٢ ــ لويس باستير
٣ ــ تشايكوفسكى
٤ ــ مايكل أنجلو
٥ ــ مختار
٦ ــ نيتشة
٧ ــ ماركونى

٨ ــ مروحة اللادى وندرمير

١ ــ مروحة اللادى وندرمير
٢ ــ خطايا الحب
٣ ــ عذراء الغابة
٤ ــ العدالة
٥ ــ البطل لوسيد
٦ ــ الحياة نفاق

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

الثمن ٢٠٠ قرش